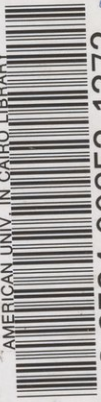
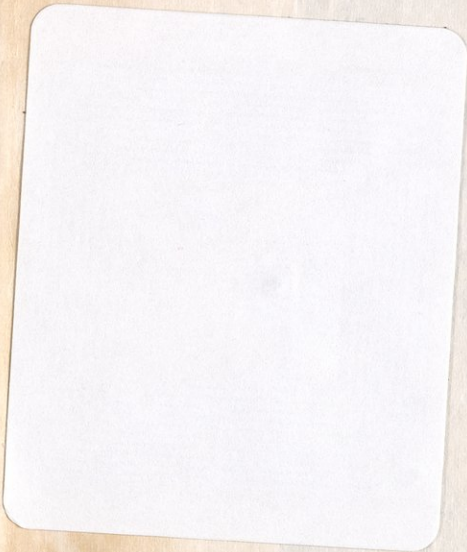


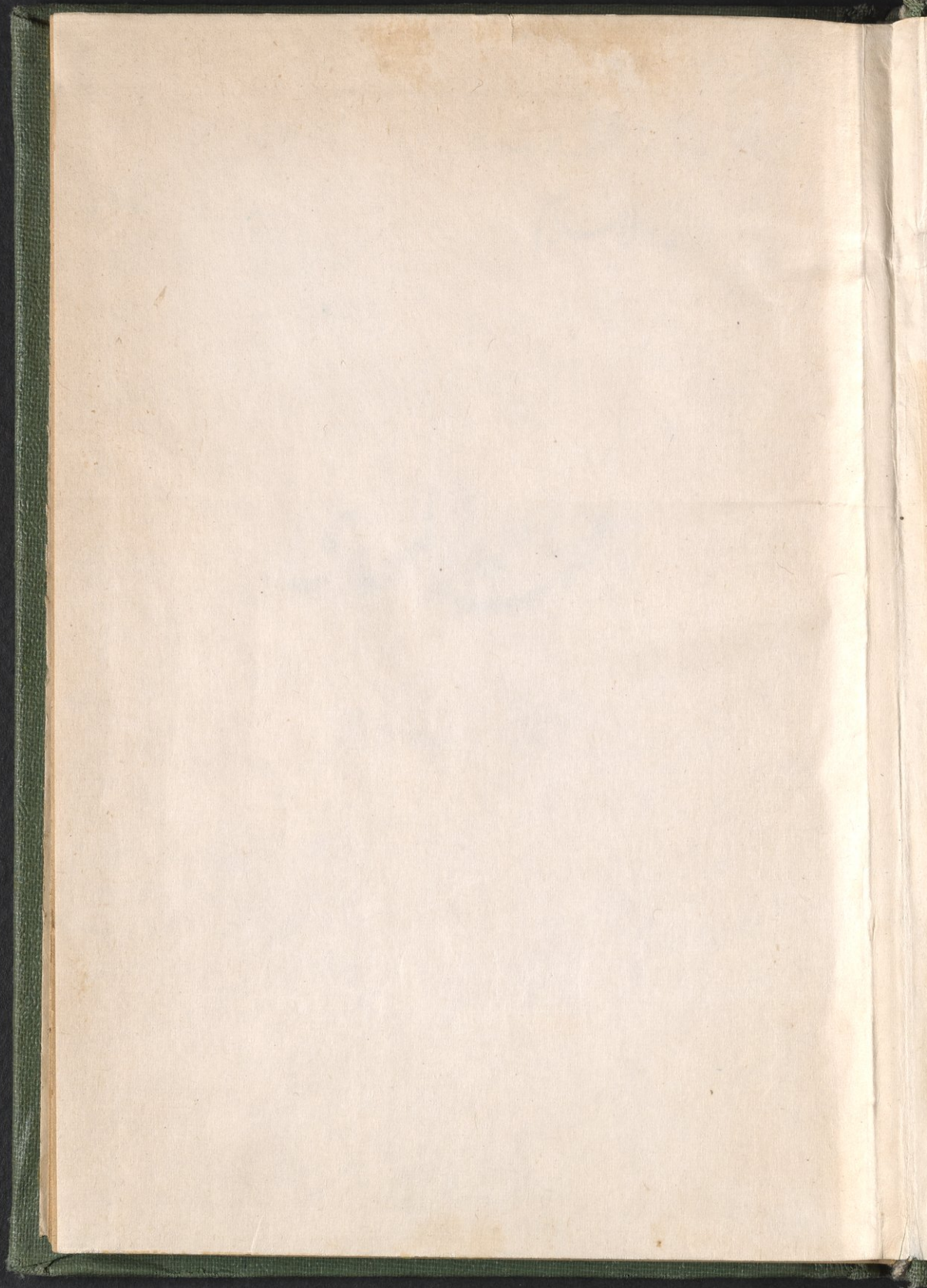
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

3 8534 00853 1372



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





02-B5801

19-11-02

ITY

TY

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

DT

156.6

B25

1944

محمد احمد المهدى

توفيق احمد البكرى

« إن المؤرخ السودانى الذى سيكتب
تاريخ بلاده يوماً ما، يجب ألا ينسى
أن يضع اسم « محمد احمد » فى طليعة
أبطاله » ونستق تشرشل

297.92
M27/b

903, 071
الحمدى

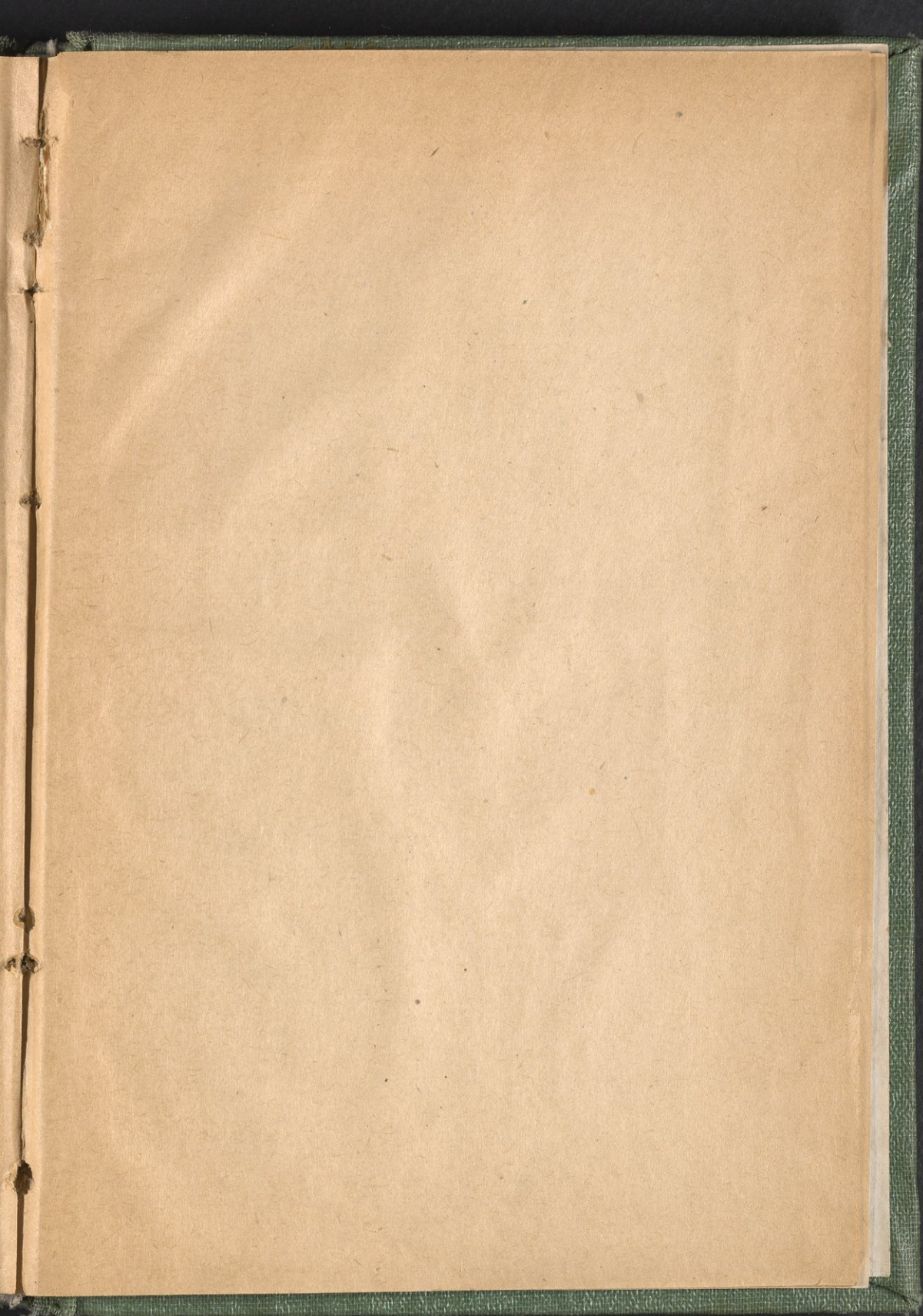
23711

مُقدِّمة

هذه مجالة مقتضبة لسيرة المهدي Biography ، تصوفه وحركته
وأعماله . أوجزتها إيجازاً مرگزا ، وأرجو أن نعود إليها مرة أخرى ،
فنفصل ما أوجزنا ونسهب فيما اقتضبنا ، ونوفى هذه الشخصية حقها سيرة
أو تاريخاً م

القاهرة في ٢٩ / ٧ / ١٩٤٤

المؤلف



٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ

١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ م

يُقبل النيل على مدينة دنقلة العُرُضِي من الجنوب البعيد ، فتعترضه جزيرة تالَبَّ وِضْرَار ، فيندس بينهما ويفصلهما بخور صغير ، ثم يجتازها راكضاً مندفعاً صوب الشمال البعيد . وتلمحهما عين الناظر فلا تقع فيهما على غير زرع نصير ودوح باسق وأكواخ صغيرة منتشرة هنا وهناك . فإذا دخلهما ألفى أهليهما عترة عربية من قبيلة الأشراف امتازوا خلقاً بالكرم والنخوة والتمسك بتعاليم الدين .

توالت الأيام والليالي على جزيرة لبب فلما انبثق عليها فجر يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ ، أقبل أهلها على مواطنهم السيد عبد الله بن فحل يهتئونه بمولوده الجديد « محمد احمد » ويتمنون له ولمولوده خير الحياة ويُسرها . والسيد عبد الله حبيب شريف المنبت تنتهي به فروع نسبه الى دوحة الحسن

السبط ابن الامام علي بن أبي طالب ، أنجب على مر الأيام غير ابنه محمد احمد بنتاً وثلاثة ذكور منهم من سبقه الى الحياة ومنهم من جاء بعده .

ولبت السيد عبد الله يزاول في موطنه زراعة أرضه وصناعة السفن مجدداً صابراً قانعاً ، فلما أثقلته أعباء الحياة انتقل بأهله الى قرية « كَرَرَى » الواقعة شمال امدرمان بقليل مواصلاً وأبناءه صناعة السفن فابتسمت لهم الأيام بعد عبوس . وشبّ الطفل محمد احمد في كنف رعاية وحذب من أهله ، . يسرّح طرفه في النيل المنحدر أمامه ، والجبل القائم وراءه ، والسهل المنبسط حوله . أدرك في تلك السن الناعمة ما أضمره له الغيب في توافق وجوده بين تلك الجزيرة التي نبت فيها ، والجزيرة التي سيأوى إليها ، وبين هذا الجبل القائم وراءه ، والجبل الذي سيلجأ إليه في عنفوان عمره ، وبين هذا السهل في حاضره وهو يثب فيه لاهياً غريراً ، وبين مستقبل أيامه يوم تتقوض في رحابه أعلام سيرفها ودعوة سيجار بها فتوى صفوف بعد صفوف من أتباعه وأنصاره تتقدم مستقبلة الرصاص الحاصد وهي تنادى متحمسة مستبسة مندفعة : الله أكبر ! الله أكبر ! فتخط للسودان صفحة جديدة في تاريخ الوجود ؟ أترأه أدرك ذلك ؟ إنه لتوافق عجيب ! !

مات الأب بعد عام في كَرَرَى فدفن بها ، وقفته الأم بعد عام . وبلغ

محمد احمد السن التي يدفع به فيها الى الخلوة أو المسيد (الكتاب) لحفظ القرآن . فذهب الى خلوة الفقيه الهاشمي وبقى فيها سبع سنوات حفظ فيها القرآن وجوده . وأراد شقيقاه أن يتعلم صناعة السفن فرغب في غير ما رغبا فيه ، وكأنه اختار لنفسه أو اختاره القدر الى صناعة الوعظ والارشاد والزهد والتقشف وتقويم المنكر وتعليم الناس ورفع عمدة الاسلام والحرب في سبيل الله .

وانتقل بعد ذلك الى خلوة الشيخ محمود الشنقيطي ، وذهب منها الى خلوة الشيخ الأمين الصويلح بمسجد ود عيسى بالجزيرة فبقى فيها قليلاً ، ثم مضى الى خلوة الشيخ الأمير ، وارتحل بعدها الى الفقيه العالم الشيخ محمد الخير في الغبش تجاه بربر ، فطاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل . وبهرته دون أثرابه في الدرس أنوار التصوف فأقبل عليها ، وساورته نفسه في سنى الشباب البله بما تساور به قلوب الفتيان من رغب الحياة وآمالها . أفيطلق مثلهم لنفسه العنان في الأمانى والآمال ؟ أمضى حياته وادعاً آملاً كما يمضيها الآخرون ؟ كلا إنه لن يفعل ذلك ، انه ليروض نفسه حتى يكبح جماحها ويقهرها على الصعب حتى يلين مراسها ، ويقتل فيها نوازع الصبوات فيذلها ويتغلب عليها ، ولن يستطيع ذلك كله إلا إذا قنت وصدف عن أعراض الدنيا الزيف .

ان شيخه يتقاضى مرتباً من الحكومة تجزيه عليه في كل شهر ، وتمده
ببعض العون من الحبوب كشأنها مع أمثاله من الفقهاء ومشايخ « الخلوات »
الأخرى ، ويجود عليه الخيرون بما تطيب به نفوسهم تشجيعاً للعلم فينفق ذلك
كله على تلاميذه ومريديه الذين يقدمون عليه وعلى أمثاله الآخرين من شتى
أنحاء البلاد . ولكن راتب الحكومة في نظره مال يجمع بطريقة لا يرضاها
الدين وبوسائل لا تتفق والعدل ، فهو مال حرام وآكله موغل في الحرام
مشارك فيه . انه إذن لن يمدّ يده الى هذا الطعام ولن يصيب منه شيئاً
وسيستعين على قوته بما يرسله إليه ذووه .

ويرتقب محمد احمد في غير تطلع ووجل رسالة أهله إليه ليدفع بها عن
نفسه غائلة الحاجة ويرد عادية الجوع . وهو في هذا الترقب مطمئن الى مورد
المال الذي يرسلونه إليه ، فهو كدّ أيديهم وعصارة عرقهم ، وهو حلال مما
يرضى الله ورسوله . فإذا ما جاءه المال ألفاه كثيراً يربو على حاجته والقليل
منه كاف لسد عوزة . أفيدخر منه شيئاً للأيام المقبلة يستعين به على كلب
الجوع ؟ ويصارع نفسه ويجالدها فيغلبها على أمرها ، ويأبى عليها أن يكون
ضعيف الايمان بفيض ربه عليه فهو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو الذي كفّل
القوت للدودة العمياء في جوف الثرى ، فمعاذ رحمته أن يتركه يهلك جوعاً .
انه إن ادخر شيئاً لغده فقد تكالب على الدنيا والتكالب عليها صداً يطمس

نور القلب وماء الألاق ، ولن يستطيع أن يشف ويرق فيسمو بقلبه وروحه
إلى معارج الملكوت الأعلى وهو بدين البطن مطمئن بما ادخر على مواجهة
الأيام .

إنه ليكفيه سد الرmq ومسكة الحوباء ، ففكر وقدر ، ثم صمم فقرر
وتصدق بذلك المال ، واتخذ منذ ذلك اليوم الغابة سبيله فاحتطب منها وحمل
أخطابه إلى السوق فباعها ، وتصدق ببعض ثمنها واقتات بالقليل الباقي .
وأصبح ذلك حاله يغدو في بكور الصباح إلى الغابة خميصا صامًا يقطع أخشابه
ويحملها على ظهره وغناؤه في سيره وأثناء عمله تسبيحه وصلواته . فاذا هذه
الاعياء استراح قليلا ولسانه وقلبه لا يفتران عن ذكر الله . وترتفع الشمس
قليلا قليلا إلى كبد السماء فيروح أدراجه ليدرس ويتأمل ، وتغيب الشمس
فيفطر يتامس الطعام بأطراف أنامله لمسا ، ثم يستأنف بعد العشي تهجدته
وصلاته والعبرات الدواق تتحدر من عينيه ضراعة إلى الله وقربا .

فاذا أوزقت الأشجار وجللها الندى وعسر عليه قطع أخشابها ذهب إلى
النيل يصطاد أسماكه ، ولكنه لن يضع في صنّارته طعاما فذلك تحايل وخداع
لخلوقات الله ، أليس من الإثم لديه أن يخدع مخلوقات ربه ؟ إنها إن تعلقت
بصنّارته فذلك رزقه المقدور ، وإلا فهو صابر على الجوع مروض نفسه على
الخصوع والتقشف مرضاة لربه . وقد يمضى عليه يوم ويتلوه آخر والأسماء

لا تقترب من صنارته فيطويها صابرا متجملا . ويرتفع ماء النهر وترتحل
الأسماك إلى لجّته فلا يبقى له من شيء سوى ما يلمحه من بقايا البصل في
جروف الزرع القائمة على شاطئ النيل ، ويهمّ بأخذ شيء منها وتحاسبه نفسه
أنه لا يحق لها أن تنال شيئا من مال غيره فيستأذن أصحابها في أن يأخذ ما يقع
عليه جزاء عمل يقوم به .

وهو في كل هذا وديع النفس كريم الخلال حي يكاد يتداوب استحياء .
يخف إلى خدمة أستاذه ولداته قريرا مختارا ، فأحبه أستاذه وقر به إليه ،
وأحبه زملاؤه وتعلقوا به . وأجهده الدرس والسكد ، وخذد الصيام والقيام
لحمه فصر ونحل ، وساء له أثرابه أن ينال شيئا مما ينالونه عند أستاذهم فاعتذر
وأبى ، وألحوا وألحفوا فأفهمهم أنه لن يأكل من راتب الحكومة الحرام .
وأسرها مكير إلى أستاذه فكبر عليه الأمر وكشفه ما سمعه عنه فصدقه القول ،
وتناقشا وتجادلا في عزلة واقتنع أستاذه فقبله فيما بين عينيه وضمه إليه إكبارا
وإجلالا . قال « يا بني !! إنني ورثت عن آبائي هذه الساقية وتلك الأرض
والجارية والعبد . وإني لأقتات وأهلي منها ، وإنك لتولينني فضلا وأى فضل
لو أنك شاركتني القليل مما لدى . فأطرق محمد أحمد اطراقه المتأبى ، وألح
أستاذه وعادود الإلحاح فقبل بعد لأي على أن يؤدي عوض ذلك عملا يساعد
به الجارية والعبد في حرت الأرض وزرعها .

هكذا كان أمره ولما يبلغ العشرين . أصاب في تلك الفترة أكثر مما أصابه زملاؤه علما وتثقيفا ، وواصل دأبه يروض نفسه ويكبحها ، وكلما نازعته الرغبات قهرها على المروزرها بالتقشف والإذلال . إنه لن يهدأ له بال حتى يتسيطر عليها ويومئذ ينال شربة من منهل القوم ، وتنكشف له أنوار الملامح الأعلى فيصل ويشاهد . تلك بغيته وانه لواصل إليها .

عاد الفتى محمد احمد إلى الخرطوم للقياء أهله بعد طول غياب ، ثم ذهب إلى جزيرة « أبابا » حيث أقام شقيقاه وأهله الأقربون يزاولون صناعة السفن والزراعة . وسحرتة الجزيرة بدوحها ومائها وهدوئها فوجد فيها العزلة المواتية للدرس والتأمل العميق ومواصلة الانكباب على كتب التصوف والوقوف على أسرار الزهد والزاهدين . إنها غايته الكبرى وأمله المنشود ، وانه ليقضى الساعات الطويلة في رياضته الروحية فلا تزال روحه وجسمه بحاجة إلى الإذلال والقهر . يستطيع أن يكبحهما ويملك زمامهما فيتلاشيا في النفحات الإلهية شذى رفرافا نقيا من أكنادار الحياة وأوشاب الرغبات ؟ إنه دوما صائم قائم نزر الكلام نزر الطعام ، مطرق في تأمل وتفكير . إذا وسعه الوقت أقبل على كتبه ، وإذا امتد به الفراغ حرث الأرض وقطع الأخشاب فلا يزال يعاوده الحنين إلى الاحتطاب وقهر النفس كما كان يفعل في الغبش ، انه صباه بالقرب الجميل .

أدرك محمد أحمد في تلك السن المبكرة من العلوم ما لم يدركه أحد من
لذاته ، فقد حفظ القرآن وجوده ، ولم يفته النحو والصرف والفقه والتفسير
والتصوف . وأولع فيما أولع به « بالأدب والعلوم العقلية كلها فدرس الفلسفة
والعلوم الطبيعية والمنطق ، وقيل إنه درس كتاب « الشمس البازغة » أكثر
من عشرين مرة . وأقبل على التفسير فقرأ فيه قدرا كبيرا ، ووجد مكتوبا
بخطه على ظهر نسخة من كتاب تفسير « الجلالين » ما يفهم منه أنه قرأه
أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ عديدين .

عرف الغزالي ، وابن رشد ، وابن سينا ، وغيرهم من فلاسفة المسلمين ،
واحتقب معه كتاب « إحياء علوم الدين » يعاود النظر والتأمل فيه متخذه
نبراسه وهدية . إن محمد أحمد كما قال عنه الشيخ الأمين الضيرير شيخ علماء
السودان قبل الدعوة المهدية « إذا حادثته في العلوم العقلية تسمع من أساليبه
الوجيزة والمفيدة ما يدعوك إلى نظمته في عقد من اشتهروا بالبراعة في هذا الفن .
وقل على ذلك من خصاله ومناقبه وخبرته بأساليب التعليم حتى يخيل للمرء أنه
يقدر على تفهيم من لا يفهم . »

إنه إذن ليس بحاجة إلى التنقل في طلب العلم ولكنه بحاجة إلى التنقل
في طلب التصوف والزهد ، وأخذ الطريق من كبار رجال الطريق . فصيامة
وقيامه وزهده وتجرده من علائق الدنيا وانقطاعه للعبادة لم تصل به بعد إلى

أول طريق السالكين . وأين هو من طريق الجنيد والبسطامي وابن آدم
والخواص وغيرهم . إنه لطريق طويل وعمر والمزار بعيد .

جاوز محمد أحمد يومئذ العشرين بقليل فنضر شبابه واستوى فارعا رشيقا
عريض الوجه أسمر اللون أدعج العينين واسعهما ، أسيل الخدين مُشَلَّخَهما
(مشرطهما على عادة أهل السودان) على خده الأيمن خال ، مفلج الأسنان
جميلهما ، بساما في استحياء وبشر .

رغب يومئذ أن يتم تصوفه وأن ينضم إلى إحدى الطرق الصوفية العديدة
المنتشرة في البلاد ، فقلَّبها واحدة واحدة فلم ترق له سوى الطريقة السمانية .
ألم يذهب مؤسسها في السودان « السيد الشيخ أحمد الطيب بن البشير » إلى
المدينة المنورة في طلب العلم ملازما الولي الكبير الشيخ محمد السَّمان الصديقي
نزِيل يثرب فعاد أدراجه في أواخر القرن الثاني عشر الهجري واستقر في
« أم مَرَحَى » أو « جبل السلطان » قريبا من « الخرطوم » ينشر دعوته
ويبشر بطريقته معلما مرشدا ؟ إنه إذن لذهب إلى حفيده السيد الشيخ محمد
شريف نور الدائم باشا نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ،
فأخذ على يديه الطريق منتظما في عداد تلاميذه وحواريه . وسبقته شهرته
إلى أستاذه فتقبله قبولا حسنا ومكث عنده منقطعا إلى العبادة والصلاة وزجر

النفس ورياضتها فترة غير قصيرة ، مقيماً على خدمة أستاذه وملازمته . يخدمه في حله ورحيله وفي غدوه ورواحه ، ويخدمه في مجلسه وفي داره ، متولياً من العمل ما يقوم به الرقيق من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ ، مغالياً في إرهاق جسمه وإذلال روحه وصهرها وزجرها . فإذا وقف للصلاة ابتدرته العبرات المنحدرات كشأنه في الغُش وجزيرة أبا وكشأنه دائماً ، وإن جلس بين يدي شيخه نكس رأسه حياء ولم يرفع طرفه إليه إلا إذا حادثه . إن شيخه ليذكر له كل ذلك ، حتى يوم تدبران هجاء واختلفاً رأياً ، ويوم بدأ دعوته فنبه إليه رءوف باشا حاكم السودان العام في قصيدته التي قال فيها :

لقد جاءني في عام « زَع »^(١) لموضع

على « جبل السلطان »^(٢) في شاطئ البحر

يروم الصراط المستقيم على يدي

فبايعته عهداً ، على النهي والأمر

فقام على نهج الهداية مخلصاً

وقد لازم الأذكار في السر والجهر

وأفرغ في نهج المحامد جهده

فرقيته جهلاً بعاقبة الأمر

(١) عام زع يوافق بالأبجدية عام ١٢٧٧ هـ

(٢) جبل السلطان أو أم مرحي مقر السيد محمد شريف نور الدائم باشا بالقرب من الخرطوم.

أقام لدينا خادما كل خدمة
تغز على أهل التواضع في السير
كطحن ، وطبخ ، واحتطاب ، وغيره
ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام ، كم صلى ، وكم قام ، كم تلا
من الله لا زالت مدامعه تجري
وكم بوضوء الليل ، كبر للضحى
وكم ختم القرآن في سنة الوتر
لذاك سقى من منهل القوم شربة
بها كان محبوبا لدى الناس في البر

فلما رآه شيخه على هذه الحال ، وأنه سالك طريق المريدين وناهج نهج
الصالحين وأنه سقى من منهل القوم ، مال إليه وأحبه ونصبه شيخا وأعطاه علما
وأجاز له « إعطاء العهود وتسليك الطريق » فرجع محمد احمد بعد ذلك إلى
جزيرة أبا ، فأقام بها مسجدا وخلوة للتعليم والإرشاد وتسليك الطريق .
ووفد عليه الأعراب من قبائل دغيم وكنانة وبنى سليم وغيرهم كثير من بدو
غرب السودان « فكان يوالى حشهم على طلب العلوم ، ونبذ الأوراد ،
وما ولع به الجهلاء من أبناء الطرق الصوفية . ويقال إنه كان يتولى تعليمهم

بنفسه حتى إنه علم الوفا مؤلفة من الأعراب الكتابة والقراءة . فكان إذا انتهى من صلاة العصر أو العشاء جلس يحدث سامعيه وتلاميذه عن الزهد وترك مباهج الحياة الزائلة والسير على هدى السنّة والكتاب ، فصيحاً بليغاً مؤثراً يواتيه البيان والشرح والاسترسال ، لا تفارقه ابتسامته فتبدو فلجته الجميلة الفاتنة للأبصار .

وتنأهى إلى الناس أمر هذا الولي الشاب أبي « فلجة » ، وتناقلوا صفات مورعه وزهده وعلمه وجوده وفصاحته ، فأقبلوا عليه يطلبون البركات من صاحب البركات ، ويشنفون أسماعهم بفصاحته وغزير علمه ، ويقدمون له الهدايا الغالية الحسان ، فيفرقها بدداً ذات اليمين وذات الشمال على المعوزين وذوى الحاجات ، لا يبقى منها شيئاً لنفسه أو لأهله .

وحفر له في جزيرة أبا عند شاطئ النيل منذ قدومه الأول غاراً يأوى إليه آونة بعد أخرى ، وقد يمر عليه الأسبوع والأسبوع في ظلمات ذلك الغار ووحشته لا يؤنسه فيه غير ذكر الله ، ساجداً قائماً آناء الليل والنهار ، يواصل الصيام والرياضة الروحية القاسية ، فإذا خارت قواه ووهن جسمه خرج من غاره ليستجم ويلاقى تلاميذه وأحابيه ليعود إليه مرة أخرى .

ويعاوده الحنين إلى زيارة شيخه ، فيذهب إليه كعادته في كل عام لتقديم واجب الطاعة والانقياد ، فيتقدم إليه ضارعاً ذليلاً إمعاناً في الخضوع

والإكبار، فيضع « الشَّعْبَةُ ^(١) » في عنقه ، وفروة الضأن في خاصرته ويحثو الرماد على رأسه كأنه العبد الآبق في حالة ذله وانكساره ، ويقبل على شيخه يطلب منه الرضى والامداد . فيحل شيخه محمد شريف الشعبة من عنقه ، وفروة الضأن من صلبه ، ويزيل الرماد عن فوده ويدعوله بالخير والبركات . ويقيم لدى أستاذه فترة يتذاكرا فيها ويتسامرا ثم يعود الى جزيرته لعبادته ودروسه وصيامه وأذكاره وتلاميذه العديدين .

هكذا كان شأنه لم ينكر على أستاذه شيئاً ولم ينكر عليه أستاذه شيئاً . ولكنه حدث ما لم يمر بخلده ، حدث أن أستاذه دعا محبيه وتلاميذه إلى مشاركتهم في فرح ختان أولاده ، وأقبل المريدون من كل صوب وأقبل معهم ولى جزيرة أبا الشاب . ان سراة السودانين ليبالغون في هذه المناسبة فتتفرق الدفوف وترقص الإماء والنساء ، وتولم الولائم ، ويواصل الأقارب والأحباب اللهو والخبور أياماً عديدة ، فيشربون ويمرحون . أفإن جاز هذا عرفاً للكافة أيجوز ذلك في بيت الشيخ الورع وإمام الطريق المتصوّف ؟ إن الرقص والحجانة والشرب واللهو تنافى جميعها تعاليم الشريعة السمحاء ، فمحمد احمد

(١) الشعبة خشبة طويلة يتفرع أحد طرفيها على شكل رقم ٧ ويوضع في عنق العبد الآبق أو المجرم ويربط طرفها المتفرع بخشبة أخرى ، وتوثق اليدين على امتداد الطرف الآخر .

لن يقبل السكوت على ذلك إذا لمح في أى بيت فكيف به فى بيت شيخه الشريف المحتد والقُدوة التى يجب أن ترسم للآخرين أروع المُثَلات : إنه منكر والمنكرات فى البلاد كُثر متفشية ، وواجب الجهاد فى سبيل نصرة الدين ليدعوه الى مقاومة كل منكر والتنديد به مهما بلغ ومن أين جاء ، وهيئات مثله القوى الإيمان أن يكون ضعيف الإيمان . ان اليوم له ما بعده .

ندد محمد احمد بما رأى وطلب من مريديه وأحبابه فى الطريق الذين جاءوا معه ألا يشتركوا فيما اشترك فيه الآخرون وقال لهم : « ان الشريعة تمنع الرقص والغناء والشراب والمجون ، وليس فى وسع آدمى إجازتها ولو كان شيخ طريق إماما » . وتطرق ذلك القول الى أسمع شيخه ، فطلبه وكله ، وأغلظ فى القول وأقصاه عنه وعن شيعته وأتباعه ، فرجع ومن معه الى جزيرته حزاناً أسفاً ، وآوى الى كهفه وطالت غيبته وطال صيامه وقيامه ، وخرج مطرقاً كئيباً . فكان يرى منزوياً صامتاً يفكر فى عوالمه العليا التى سما إليها . لقد رأى فيها من الأنوار والأطياف وأدرك من المعانى والصور ، وأحس من المشاعر والنمات ما لم تسبق له رؤيتها أو الحس بها أو إدراك كنهها . والطريق وعمر والمزار بعيد .

أين يُقيم وجهه ؟ إن الشيخ القرشى ودَّ الزَّين فى الجزيرة لا يقل منزلة

ومكانة في الطريقة السمانية عن شيخه محمد شريف ، فقد أخذها رأساً عن الشيخ الطيب الكبير واشتهر بالتقوى والورع وله من الأتباع والمريدين خلق كثير . أيراسله ليجدد عليه البيعة والطريق ، أم أين يذهب ؟ وبيننا هو في حيرته تلك وفد عليه وافد الشيخ القرشي يدعوه إليه . ومن ذا الذي لا يسارع في ضم محمد احمد الى عداد تلاميذه والصفوة من حواريه ! وبيننا هويهم بالرحيل الى الجزيرة أقبل عليه رسول أستاذه محمد شريف يدعوه إليه ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور فاعتذر شاكراً ، ومضى نحو الشيخ القرشي ، وجدد لديه العهد والطريق وألفاه شيخاً طاعناً تقياً من الصالحين ، وتعلق به شيخه الجديد وتعلق هو بشيخه الجديد ، فأدناه وقربه وبالغ في الثناء عليه والاحلال من قدره أمام تلاميذه وفي حضوره وغيبته .

عرف محمد احمد في الجزيرة ما بين النيلين ، وفي شرق السودان وغربه ، وفي شماله البعيد . أليس هو الولي الشاب الذي عارض أستاذه محمد شريف ؟ أليس هو الزاهد الذي يوزع ما يهدي إليه ذات اليمين وذات الشمال على المعوزين ؟ فأينما سار وحل تهامس الناظرون إليه بأنه قطب الوقت وإمام الصالحين . فإذا ما أخذ طريقه تراحم الناس على تحيته ولثم يده ، وإذا ما صلى وجلس جلسته تلك في جزيرة أبا عقب صلاة العصر والعشاء استمعوا الى وعظه وسبحوا ببلاغته مأخوذين دهشين . انه ليحدث سامعيه عن تعاليم الإسلام ، وعن الآلام التي يعانونها ، وعن منكرات

العصر ، وعن الظلم والظالمين . ويحث المساهمين على التمسك بالدين ، والانصراف
عن الدنيا ، والأخذ بالتواضع ، وزجر النفس والاشتغال بما يقرب من الحق
عز وجل ، ويؤدى الى مشاهدته والقرب منه ، « وتقليل الطعام والكلام
والنمائم واعتزال الأنام والذكر المدام والفكر التمام » ففي ذلك كله صفاء النفس
وانتفاء مساوئ الأخلاق وانجلاء الظلمات الدنيوية عن القلب وتجلي الحق
فيه .

انه ليواصل وعظه وحديثه في كل مكان نزل فيه ، فلما رجع الى جزيرته
انفلت الى غاره وبقي فيه فترة أطول من كل فترة سابقة ، صائماً قائماً مفكراً
منطلقاً في عبادته وتأمله حتى لتكاد روحه التي بين جنبيه تحطم اسار المادة
وتسبح في عوالم الروح الكبرى وترتفع عن دنيا الناس الى دنيا الحق .
ويظل هكذا شأنه تماثلاً لا حراك فيه ، فلا عين تومض ، ولا كيف تتحرك ،
ولكنه سبات وهمود عميق .

لقد ألم يبلغ بالإرادة والرياضة حدا عظيماً ؟ « لقد عنت له خلّسات من اطلاع
نور الحق لذينة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه . ألم تكثر عليه هذه
الغواشي كلما أمعن في الارتياض ؟ إنه ليعن في ذلك حتى يغشاه في غير ساعات
الارتياض ، وحتى ليكاد يرى الحق في كل شيء . ثم انه لتبلغ به الرياضة
مبلغاً ينقلب له وقته سكينه فيصير الخطوف مألوفاً ، والوميض شهاباً بيناً ،

وتحصل له مُعَارَفَةٌ مستقرة كأنها صحبة مستمرة ؟ وزاد الوضوح والانبلاج
واللذة العظيمة » ، انها لما يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين .
ألم تلح له في كثير من خلواته بنفسه في غاره المظلم الموحش طيوف وأشباح
وهو في سكرة عبادته وتلاوة أسمائه وامتصاعد بخوره ؟ انها أطياف مخلوقات
من عوالم أخرى .

ألم تتردد في أذنه حضوراً لا غيبة ، ويقظة لا مناماً أصوات رقيقة
وهواتف حنونة ؟ ألم ير في غفواته ما لم يره مخلوق ؟ لقد وصل أو كاد بعد
طول عناء . إنه اليوم غيره بالأمس ، لقد قطع الطريق ودنا المزار .

انه ليمأزف هذا العالم عدلاً كما ملئ جوراً وليعیدن للشرعية
سالف عهدا السّمح ، وللإسلام مشرق ماضيه الوضاء وليقوضن دعائم
الاثم والفجور والكفر وليزيلن الخرافات والأوهام . إنه التصوف والزهد
لقد وصلا به إلى سُبُحات عليا وأنارا له بصيرته وبصره ، وأمدّاه بقوة
هي قوة الحق ، وقوة الحق لن تقهر .

الئن أذله أستاذة وأقصاه منبؤذاً مدحوراً فما به بعد اليوم حاجة الى
شيخ وأستاذ . شتان بين اليوم والأمس ، وان الغد لغده ، والشأن لشأنه
انها رسالة سينهض بها ، ودعوة سيدعو إليها ، ودين سيقم دعائمه .

قُبُضَ الشيخ القرشي في أعقاب سنة ١٢٩٧ هـ — ١٨٨٠ م ، فخفَّ
محمد احمد إلى « المسلمية » ليتقبل العزاء في أستاذه ، فوجد أن شيخه في
احتضاره أوصى بأن يكون محمد احمد خليفته والقائم على شؤون الطريق بعده ،
ووصية الشيخ القطب أمر متبوع وعهد مقطوع . فبايعه الأحاب في
الطريق وانضم إليهم جلّ ذرية الشيخ الطيب الكبير مؤسس الطريقة
السمانية ، فأصبح الحواري المقصي بالأمس ندّا ومنافسا لأستاذه القديم .
ووفد الناس على أبي فلجة وصاحب العلامات وإمام الوقت فريقا بعد فريق .
وتهامس أحاب الطريق بأن المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلا كما
ملئت جورا منهم ، وأن القرشي قبل وفاته أوماً بذلك إلى محمد احمد . وتناقلت
الأسنة هذا القول فانتشر انتشار همسة المذيع . أينقص محمد احمد شيء مما
تهامسوا به ؟ إنه عالم ، وصالح ، وشريف النسب ، ينتمى إلى الحسن السبط ،
وأنه أفرق الثنايا على خده الأيمن خال . أليست تلك بعض علائم صاحب
الوقت وأشرط الإمام المنتظر الذي سيملا الأرض عدلا كما ملئت جورا ؟
أخذ محمد احمد في إقامة قبة عالية فوق ضريح أستاذه تخليدا لذكراه
واعترافا بمكانته وفضله ، وإظهارا لإخلاصه ووفائه . وساهم مع العاملين في
البناء من أبناء الطريق ، فرفع الآجر وحمل التراب حتى سمقت القبة بعد شهر
شاحخة إلى عنان السماء بيضاء تتألق في وهج الشمس الساطعة وتلوح عاطسة

للقدام من بعيد ، فيؤمها أحباب الطريق من كل مكان للزيارة والتبرك ،
ورفع فروض الولاء والإخلاص لشيخ الطريق حتى بعد وفاته .

وبينا هو يعمل مع العاملين في البناء قدم بدوى فارغ القامة نحيلها لمس
الجدري أطراف وجهه ، غريب اللهجة والزى ، حديد البصر تومض عيناه
بذكاء عظيم ، وتلمح في أساريره قوة الإرادة والعزم وسعة الحيلة والدهاء ،
هو عبد الله بن محمد وَدْ تَوْر شَيْن من قبيلة التعائشة أو البقارة . أقبل من
غرب السودان يستحث خطاه لأخذ الطريق من محمد احمد ، وفي أذنيه تتردد
وصية أبيه الشيخ الصالح الذي طلب منه أن يذهب بعد وفاته إلى الولى القطب
ساكن جزيرة أبا ليأخذ منه البيعة ويتوفر على خدمته والوقوف ببابه والتفانى
في نصرته والذود عنه بالروح والنفس ، فهو صاحب الوقت والإمام المنتظر .

فلما انتهى بناء القبة رجع محمد احمد إلى جزيرة أبا وحوله خلق كثير
من أحبابه وتلاميذه ومريديه ، وفي طليعة الركب يسير عبد الله الحوارى
الجديد يحمل علما نقشت عليه آيات من القرآن الكريم . وأخذت الوفود
ترد عليه من دار فور وكردفان والبحر الأحمر ودنقلا والجزيرة لتحظى بنفحة
من نفحات الولى الصالح . وعبد الله يزداد كل يوم من سيده حُظوة وقربا ،
متفانيا في خدمته والسهر على راحته وإظهار ولائه ومحبته . أترأه أسر له في
عزلة من الناس وصية أبيه ؟ أم لزم الصمت حتى يأزف اليوم الموعود ؟ ان

أباه وقد كان صالحاً من أهل الكشف قد ذكر له في الساعة التي لا ينطق فيها المسجى المحتضر كذبا وميناً أنه سيقابل المهدي المنتظر ، وسيكون وزيره وخليفته .

اعتزم محمد أحمد بعد أو بته من المسامية أن يقوم برحلة ثانية إلى غربي السودان ، يث فيها طريقته ، ويلقى فيها أحبابه وتلاميذه ، ويوثق عرى المودة بينه وبينهم ، ويستطلع أحوال البلاد ويقف على شئونها . فخرج في ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ هـ — مارس ١٨٨١ م في سياحته تلك ، ومن حوله الأحباب والتلاميذ في زى الدراويش . الجبة المرقعة ، والعصا الطويلة ، والسبحة والركوة^(١) ومنطقة السعف (خوص النخيل) والطاقيّة المقرّنة . فتلقاهم الناس أينما حلوا بالترحيب والإكبار ، واندفع أهل القرى والبدو والحضر والجبال يتسّمون بركات الولي الصالح صاحب الكرامات ، ويهمسون بأنه القطب والإمام المنتظر .

لقد طال الانتظار . وبلغ الضيق حدا لا تتحمّله النفوس . والهشيم المتراكم من غيظ وحقد دفين لتشعله شرارة من زناد قادح . فماذا رأى محمد أحمد في سياحته ؟ وماذا عقد العزم عليه ؟ لقد حان الوقت ودقت الساعة .

(١) الركوة : إبريق من الجلد غطاؤه على شكل اسطوانة طولها حوالى عشرة سم من الأنوس أو سن الفيل يستعمله السودانيون للوضوء

الطبول تدق ، فيملاً دويها الشَّعاب والسهول والوديان . والأعلام
ترفرف هَفَّافَة مع النسائم ، وجموع الدراويش في جُبَّهم البيضاء الزاهية بشتى
الرُّقع الملونة تسارع الخطى مهرولة إلى الأمام ، وأصوات التهليل والتكبير
وترديد الشهادتين يصم الأذان ويرتفع إلى عنان السماء . ومحمد احمد يتقدم
أحبابه وتلاميذه في الطريق ، وأمام هذا الجمع الحاشد المتدافع كأمواج البحر
السادرة عبد الله التعايشي يحمل العلم المُرَقَّم بالآيات . لا يعيا الركب سيرا ،
ولا يعيا تهليلا وتكبيرا . ويخرج أهل القرى والديسا كراكى لم يرحل عنها
أهلوها فرارا من بطش الجند ونجاة من قسوة الجبابة لملاقاتهم والترحيب بهم ،
والتبرك بلمى الله الزاهد ساكن جزيرة أبا الذى قدم لزيارتهم ، يطلبون
منه الدعوات الصالحات ، ويتطلعون إليه فى غدهم تطلعهم إلى بصيص الأمل
فى ديجاء الخطوب .

هكذا خرج محمد احمد لرحلته فى غرب السودان . مرَّ بجبال النوبة ،
واجتاز فيافي كردفان المترامية ، فعرفها مكانا مكانا ، واستقبله الناس هذه المرة

استقبالا أربى على استقبال زيارته الأولى حماسا وترحيبا ، بعد أن ترمى إليهم نبأ موقفه من أستاذه محمد شريف . وأصبح السودان كله آذانا مرهفة تتسمع إلى ما حدث فيزيد الناس الروايات ويمعنون في الشرح والتأويل .

محمد احمد في رحلته تلك وبوارج الأسطول البريطاني على وشك دك حصون الاسكندرية ودورها دكا ، فينزل الجنود البريطانيون أرض مصر ويلاقهم العربيون ، وتطفأ نيران الثورة في شمال الوادي ليتأجج أوارها في جنوبه ، ويحكم على الثوار بالموت ويستبدل الإعدام بالنفي وتحتل بريطانيا مصر وتتولى إدارة شئونها . فما الذي أثار ساكني شطآن النيل الأدنى ؟ تمرد المصريون على حكامهم الأتراك المسيطرين على مناصب الدولة العليا ، وتعددت الأسباب فثاروا في وجه الضرائب الفادحة ، والإدارة الختلة ، والتدخل الأجنبي ، ووقوفه في وجه الحركة النيابية التي لم يستأثر بها أهل الشمال عن أهل الجنوب ، بل ذكروا في حادثة عهدهم بذلك اللون من الحكم مواطنهم في الجنوب فأفسحوا لهم في مجلس النواب عشرين مقعدا . ترى أيعيد التاريخ نفسه ؟ والتاريخ أبدا يعيد نفسه ، من يدرى !!

لم يكن السودان بأسعد حالا من مصر . فزمام الحكم فيه بأيدي السادة الأتراك من حملة الالقاب الفخمة العريضة الذين استأثروا في الشمال بكل شيء ، واستأثروا في الجنوب بكل شيء . وما شكاه منه المصريون ارتفعت بالشكوى

منه السنة السودانيين . « إن أهل شمال النيل وجنوبه ، كما يقول ونستن
تشرشل ، كانوا في البلوى سواء . تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا
فيه فوجدوه في صورة زعيم عسكري هو عرابي باشا ، وتطلع أهل المنبع إلى
زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه في صورة زعيم ديني هو محمد احمد » .

عاد محمد احمد من رحلته في الغرب بعد أن وثق أواصر التفاهم بينه وبين
أقوال العشائر ونظار القبائل وأصحاب الشأن في البلاد ، وضم إلى عداد تلاميذه
في الطريقة السمانية عشرات الألوف من المريدين المخلصين ، وعاهدوه على
السمع والطاعة ، والتمسك بأوامر الدين ، والانتهاز عند نواحيه ، والاستعداد
إلى نصره الحق ، وإقامة سنن الشريعة ، والفناء في ذات الله ، وحضهم على
« الذل والانكسار وقلة الطعام والشراب والصبر وزيارة السادات ، وأمرهم
بالحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله ، وأن يعصموا أنفسهم من زلل
الوقوع في الحسد والكذب وترك الصلاة » .

فماذا شاهد محمد احمد في هذه الرحلة من أحوال البلاد ؟ وماذا عقد العزم
عليه ، ووطد النفس على القيام به بالغة ما بلغت التضحية والاستبسال ؟
أبصر محمد احمد إدارة سيئة يتولى دفتها الجهلاء والأفطاز من الأتراك ،
ويبيعها كبار الرؤساء منهم إلى الموسرين من السودانيين لتكون سبيلهم إلى
ابتزاز الأموال وجمع الثروات وإرهاق الشعب . « ألم يكن ظاهرا للعيان أمر

هدية مدير كردفان التي حملها البرق إلى الحكمدارية فأمرت بالقبض على التجار الذين سألوها عزل المدير وإنفاذ إرادة الخديو القاضية بتولية أناس من السودانيين سبق لهم التوظيف في مديريات مصر دون الملحقات .

ألم يقل أحد مؤرخي ذلك العصر من السودانيين « ان الحكومة مسئولة عن أعمال الذين لا هم لهم غير حشد المال بطرق الجور مما اشتهر أمره ولم يعد خافيا على أحد ، وبيع المناصب بالآلاف من الذهب . ولكنني أبرئ من وصمة عار ما يحدث جلالة أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد ونائبه سمو الخديو توفيق باشا فإنهما لم يعلما شيئا منه ، ومن فعل الفئة الطامحة إلى امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . ولست أومل البتة في إصلاح حال السودان ما دامت الحكمدارية تريد السلب والابتزاز . »

ألم يقل آخر « كل دولة فشئت فيها الرشوة تداعت أركان عزها ، وتقوضت دعائم مجدها . وما سمعنا قط بمثل ما هو واقع الآن في الخرطوم من بيع مناصب الدولة لأناس ليسوا لها أهلا . وأن ثمن كل منصب محدود معلوم . وقد أخذ الأغنياء يشترونها ليتوصلوا بها إلى ابتزاز أموال الآخرين . »

« إن أكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير إرادتهم لبعد السودان وشدة حره ومشاقه . فكانوا لا يهتمون في الغالب إلا بالانتفاع من وظائفهم ، فيفرضون على المديرين أموالا باسم الهدايا فيضطر

المديرون إلى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت إدارتهم أو من الباشبوزق الموكلين بجمع الضرائب . وهؤلاء يفرضونها على الأهالي أضعافاً لأجل وفاء ما فرض عليهم وحفظ شيء منها لأنفسهم . وكانوا يشددون على الأهالي في هذا التحصيل وهم آمنون من القصاص للتواطىء مع الولاة والمديرين .

وقد شاهد محمد أحمد فيما شاهده أرواحاً مهددة وحرقات مغتصبة وأملاً كامنتزة وبلاداً مخربة ، هجرها أهلها خوفاً من شدة الضرائب وفراراً من قسوة الجبابة . إن الضريبة الواحدة لتزداد وترتفع حتى « ليدفع الرجل في ضريبة العشرين قرشاً خمسمائة قرش أو تزيد ، والجبابة يحملون قدر ثلثها إلى ناظر القسم وقدر الثلث إلى المدير . وهكذا حتى لا يصل إلى الخزانة العامة غير العشرين قرشاً . وكانوا أحياناً يقسمونها إلى خمسة أقسام . الأول كانوا يسمونه ضريبة الخديو ويزعمون أنه يدخل جيبه الخاص ، والثاني ضريبة الخزانة المصرية ، والثالث ضريبة خزانة الخرطوم ، والرابع للحكمدار ، والخامس للمدير والنظار .

إن الرجل ليبيع متاعه وكل شيء لديه ليدفع الضريبة الباهظة ، فإن عجز سيق إلى ناظر القسم فتفنن في إذاقته العذاب ألواناً على مرأى ومسمع من أهله ليكون نكاله نذيراً وتذكرة للآخرين . إنه « لي طرح أرضاً على

وجهه وتدق أربعة أوتاد وتربط كلَّ من يديه ورجليه إلى وتد منها « ويقف الجلاد بجملته بالسياط حتى يدمى جسده ، أو يلقي مكتوفا في قيظ الهاجرة ولظى الشمس المتوقد يلهب جسده . « أو إنهم ليمضعون في سراويله هراً بعد أن تغل يدها ويترك الهر في داخل السراويل » ، ويهوون عليه ضرباً بالسياط والهر يمزق جسده تمزيقاً ، « وأن المرأة الحسنة لتحبس إذا تأخر زوجها أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية ، وتبقى في السجن إلى أن يدفع ما عليه فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك » .

أين المفر ، والخطب مستطير ، وحكومة مصر لا تستطيع مما بها من أحداث أن تسمع شكاية الشاكين وهي تحتاز عهداً جديداً . أن تدمر السكان أخذ يزداد ويظهر . فشكوا الفقر وسوء الإدارة والظلم والاضطهاد ، وآمنوا أن المصائب التي حلت بهم مردها ومرجعها إلى حكاهم الأتراك ، فاشتد نفورهم من حكاهم وتمكن الحقد والوجد في قلوبهم ، وأصبحوا يتمنون زوال هذه الحكومة التي سلطت عليهم من لا يرحمهم واستبدلها بأية حكومة أخرى ، وارتفعت أصواتهم سرّاً وجهراً « عشرة في ترربة ، ولا ريال في طلبه » حتى أصبحت مثلاً سائراً ونذيراً بما وطّدوا العزم عليه من شق عصا الطاعة والتمرد على ولي الأمر . فمن يلمّ شمل هذه النفوس الخائرة ويقوّى الأرواح الخائرة ويخوض بهم بحر مغامرة كبرى ، فيكسر الأصفاة المتعددة

الألوان التي كبّلها بهم حكامهم الترك ؟ وإذن « فالويل للترك ! . الويل للترك ! » . انهم يذكرون ذلك العهد حتى اليوم وإلى الأبد باسم « التزكية السابقة » في السودان ، ولا يسمونه بالحكم المصري ، فقد كان الولاة كلهم من الأتراك . لقد برئت مصر من إثم ما حدث ، وكان سكان الوادي كلهم ، شماله وجنوبه في بلواء « الترك » سواء .

وما أبت السودان حكم حكومة
إلى أن أتى ضعف « المطالبين ^(١) » من مصر

فكالثلث والثلثين « للميرى » وحده
وللشيخ والنظار ، أضعافه ، فادر

بكتف شديد ، ثم ضرب مبرح
ومن بعده الإلقاء في الشمس والحر

وأوتاد ذى الأوتاد ، من بعض فعلهم
وأشنع من ذا كله ، عمل المهر ^(٢)

وسمع محمد احمد أيضا تذر تجار الرقيق بعد أن قررت الحكومة والأوامر
الصادرة من مصر - وفق المعاهدات الدولية لمنع تجارة الرقيق - وقف تلك التجارة

(١) المطالبين : جمع طلبة ، وهو الاسم الذي كان يطلق على الضرائب يومذاك ، لأنها
مطلوب الحكومة من الأهالي (٢) قصيدة محمد شريف نور الدائم باشا

الآدمية الممقوتة . ولكن التجار ألفوا تلك التجارة منذ أمد بعيد وكانت لهم باباً من أبواب الرزق الواسع ، ففسير عليهم أن يدركوا في إثرة النفوس وأنانيتها مغزى تلك الأوامر والمعاهدات أو أن يفهموا ما انطوت عليه تجارتهم من وحشية وقسوة إنسانية . إن الحكومة قد أرسلت إليهم أمثال بيكر وغوردون وجسى وجيجلر للضرب على أيديهم ، وهؤلاء نصارى لا يدينون بدينهم ، فتساءلوا هل أرادت الحكومة بدينهم وبهم شراً ؟ إنهم لا يدركون ، وكيف يدرك تاجر طمس حب المال بصره وبصيرته ، وحال الجهل والاثرة بينه وبين فهم هذه المبادئ الإنسانية العالية ، فكانت سبباً آخر من أسباب الامتعاض والتذمر والتأهب للتمرد والثوب .

إذا ارتفعت موجة الثورة في البلاد فهل تستطيع الحكومة القائمة لدفعها رداً ؟ إن حامياتها ضعيفة قليلة متفرقة في أنحاء البلاد السحيقة لا تزيد في مجموعها على أربعين ألف جندي أبعادوا عن مصر لتمردهم ومشاكلهم . « ترك » أشرار من الباشبوزق « انطوت قلوبهم على القسوة والتمرد ، لم تحسن الحكومة تدريبهم وتنظيمهم ، ولم تدفع لهم مرتباتهم إلا نادراً ، فعاثوا في البلاد سلباً ونهباً ، وضباطهم أسوأ حالاً وأقسى طبعاً . منهم المنفي لسوء خلقه أو للسخط عليه ، ومنهم من ساقته الفاقة للعمل في فيافي السودان البعيدة ، ومنهم من استدرجه حب جمع المال الى تلك الأنحاء النائية مسوقاً بسراب

الأمانى وسحر المجهول . فكان الضباط كجنودهم حثالة الجيش المصرى
سيقوا إلى الجنوب سوقا للخلاص منهم » ، ينقصهم كل ما يزين الجندى من
تدريب ونظام وشجاعة . ومن دون هؤلاء جنود « البازنجقر » وهم الجنود
الوطنيون أكثر عددا وأسوأ خلقا . طووا قلوبهم على بغض زملائهم الجنود
والحقدهم عليهم حقدا تزايد على مر الأيام .

تلك هى الحالة العامة فى أنحاء السودان . سوء إدارة ، وباهظ ضرائب ،
وقسوة جُباة ، وتوثب للشورة وتأهب للتمرد والعصيان . والسودان فى حالته
الثقافية لم تصله من مبادئ حقوق الإنسان التى جاء بها أعلام بعثات محمد على
وإسماعيل إلى مصر ونشروها بين الناس فساعدت على تغذية حركة العرابيين
والوطنيين ودفعتهم إلى القيام بحركتهم الإصلاحية والاستقلالية ، ولكن
للسودان فى الطرق الصوفية العديدة بواعث ودوافع أخرى لا تقل فى قوتها
عن تلك البواعث التى أثارت المصريين على حكامهم الأتراك . والناس
ينظرون إلى تلك الطرق الصوفية ومشايخها وأقطابها نظرة قداسة ونظرتهم إلى
الهداة المرشدين ، « وجعلوا منهم رؤساء يرجعون إليهم فى أمور الدين
والسياسة معا ، لأنهم يرون أن امتزاجهما واجب ديناً ، بل هم يعتقدون أن
السياسة بنت الدين ، ودليلهم على ذلك أن الممالك البشرية لم يرسخ بناؤها

وينبسط نفوذها وينتشر لواؤها بين أقوام إلا بعد اجتماعهم على وحدة دينية أو قومية ، والأولى أقوى ، وبهذا تراهم ينقادون لمشايخهم انقيادا أعمى ويفدونهم بأرواحهم وأموالهم ، ويصلون كل من أهان أساتذتهم ومشايخهم ولو إهانة خفيفة حربا عوانا . ولا يكون ذلك إلا بعد أن يتحققوا من علم هؤلاء الأئمة وعفتهم وأمانتهم وكمال عقولهم ومحافظتهم على أحكام الشريعة الحميدة » وقد كانت تلك روح العصر في وادي النيل وفي البلاد الشرقية الإسلامية جمعاء .

ومن تلك الطرق الصوفية المنتشرة في السودان الطريقة القادرية أو الجيلانية ، والسَّمانية ، والشاذلية ، والميرغنية ، والاسماعيلية ، والتيجانية ، والأحمدية ، والرفاعية وغيرها . وكانت الطريقة السمانية يومذاك أوسع الطرق انتشارا وأرفعها مكانة حتى ليكاد المنتسبون إليها يبلغون ثلثي سكان السودان ولها شيخان يتنازعان أمرها هما الشيخ محمد شريف نور الدائم باشا شيخ محمد أحمد الأول والشيخ القرشي ودّ الزين في المسامية شيخ محمد أحمد الثاني بعد أن أقصاه شيخه الأول ، وتولى شؤون المشيخة ورئاستها بعد وفاته ، فأقبل عليه عدد كبير من تلاميذ شيخه الأول يطلبون الانخراط في سلك تلاميذه ومحبيه بعد أن اشتهر أمر زهده وصلاحه وتمسكه بتعاليم الدين .

إن الناس في بساطتهم لينظرون إلى أولئك الدراويش الذين يجوبون

الأرض وينتقلون من مكان إلى مكان في جبههم المرقعة ، وطواقيمهم المقرّنة ،
وسيحهم الطويلة ، وشعورهم الكثّة ، وتصرفاتهم الغريبة ، نظرة الإجلال
والقداسة . فمن يدرى لعل الخضر عليه السلام يدرج في رى واحد منهم .
إنهم يقدمون على السودان من بلاد فارس والمغرب والحجاز والشام لا يسألون
الناس الخافاً ، ولا يمدون أيديهم بالمسألة ، فإن أعطوا أخذوا ، وإن لم يُعطوا
ذهبوا لطبيّتهم يذرعون فجاج الأرض القضاء .

إن المتصوفة من رجال تلك الطرق يعتقدون في إمام يخرج آخر الزمن
يملاّ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، ويستبدل أحكام القانون الوضعي
بالقانون الشرعي . أيكون هذا الإمام المنتظر من هؤلاء الدراويش السامّين
في بلاد الله ؟ أم يكون وليّاً من الأولياء الصالحين مشايخ الطرق الصوفية
وأعلام الدين الزاهدين ؟ فإن كان من هؤلاء فأى مشايخ الطرق الراهنة
يومذاك جدير بهذا المقام السامى واللقب الرفيع والولاية الشاملة والامامة
العليا ؟

إن محمد احمد الولى الزاهد المتبتّل قد شاهد غير ما شاهده من أحوال
البلاد نكراً واستهتاراً وغواية بالغة وخروجاً على تعاليم الإسلام . والناس بين
أثرياء ساقطهم تيارات النعيم إلى التكالب على لذات الدنيا والانغماس في
الشهوات ، وبين فقير طحنه الاملاق والظلم فققد زمام التجمل والصبر وانزلق

على قلة ذات يده في مهاوى الغواية والרגائب . وقد شاهد ولى جزيرة أبا في
الابيض حفل زواج على طبيعة شاذة وعرف غير مألوف . أيسكت عن أمثال
هذا الموقف الشاذ وعن أمثال غيره مما شاهد وسمع ؟ كلا إنه لن يكون ضعيف
الإيمان يغير المنكر بقلبه . وأين القانون الزاجر والشرع القائم والسنة المتبعة
التي تردع كل آثم فترده إلى نهج الخير والصواب . إن قوانين الحكومة
القائمة لتحل شرب الخمر والغواية وتأخذ الضرائب الفادحة ، ولا تقطع يد
السارق ، ولا تجبي الخراج والزكاة . إنها حكومة غير إسلامية ، إنها حكومة
الكافرين . إنه يا طالما جرى على لسانه قول الله تعالى « فلا تحشوا الناس
واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
ال كافرون » ويسترسل في تلاوته فتعترضه في نهاية الآيات ، « ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ، ويمضى قليلا فيقف عند ختام الآية
الأخرى ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . إنه لحكم
جائر وفساد سادر « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم
يوقنون » . إن كل شئ يجب أن يتبدل حكما وعرفا وقانونا ونظاما اجتماعيا ،
فتحل الشدة محل اللين ، والحزم محل التراخي ، ويومئذ يستقيم الأمر ، ويعلو
شأن الإسلام .

فكر محمد احمد في العودة إلى جزيrote بعد أن بسط نفوذه في جميع

أتحاء غرب السودان ، وفي نفسه ما فيها من رغبات وآمال جسيمة في الإصلاح والجهاد . وتهاقت عليه القبائل الضاربة في الأرجاء السحيقة تؤكد ولاءها ومساعدتها . أفحدثهم عن سره سرا ؟ إنه إذا جلس استمع له الأتباع المخلصون المؤمنون ، والمتذمرون الساخطون ، وارهفوا الأذان إلى صوته الساحر ، وأخذوا بهريق عيونه الآمرة ، وفتنتهم وضاعة ابتسامة فلجته الجميلة . وأن صوته في وعظه لهم ليرتفع فجأة يحدثهم عن الخلاص والنجاة ، ويحثهم على ترك الآثام الفاشية فلا خمر تشرب ، ولا غواية ترتكب ، ولا تكالب على الدنيا ، ولا انزلاق في الموبقات ، ولا لهو ولا مجانة في حفلات ختان أوزواج ، ولا كذب ولا حسد ولا ترك لصلاة من الصلوات . إنهم إن فعلوا ذلك وضع لهم طريق الحق ، وأصبحوا جنوداً بسلاء في جيش الخلاص ، فكسروا القيود وحطموا الأغلال . إنه ليردد ذلك في كل وقت وفي كل مكان وعقب كل صلاة ، ومساء كل نهار حتى انطبع في نفوس السامعين ووقر في أعماق قلوبهم .

أكان ذلك أول صوت ارتفع مؤذناً بهبوب العاصفة ؟ أم أن هناك أصواتاً أخرى مكتومة ستنتطق يوماً ما ، قوية تملأ الفجاج : الله أكبر ! الله أكبر ! الجهاد الجهاد في شأن الله ورسوله ؟

انه لعصر مضطرب وحكم جائر ، ومجانة فاشية ، وصوفية طاغية ، وتضرّم

بركان يوشك أن ينفجر على يد زعيم في أية صورة من صور الزعامة ، ليجعل
الاضطراب استقراراً ، والجور عدلاً ، والمجانة استقامة ، والصوفية عرفاً
وتقليداً عاماً .

عاد محمد أحمد إلى جزيرته ، فهرع إلى غاره للصلاة والصيام والتهجد
والرياضة القاسية . إنه ليحن إلى الطيوف التي شاهدها ، والأصوات التي
سمعها ، والأنوار التي غمرته فبهر لها ، والمشاهدة الروحانية التي وقف أمامها
حائراً ذاهلاً مبهوتاً .

خرج محمد احمد من غاره بعد خلوة رياضة روحية دامت أربعين يوماً
هزياً ضامراً وضاءً محيياً أزهر البسمات ، ولكن مظهره اليوم غيره بالأمس
حينما كان يخلو بنفسه ويطلع على أحبابه ومريديه . فما له كان أمراً جليلاً
يوشك أن يقع ؟ فلما دنا منه محبوبه سمعوه يردد : « بسم الله ما شاء الله ،
لا يسوق الخير إلا الله . ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله . ما شاء الله
ما كان من نعمة فمن الله . ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله . إني آمنت
بالله ، ورجعت إلى الله ، وتوكلت على الله ، واعتصمت بالله . فلا حول ولا
قوة إلا بالله ، وهو حسبي ونعم الوكيل » .

« إن غاية الكمال الصوفي هو طلب الفناء عن النفس والاخلاص في
مشاهدة الحق حتى تغيب السماوات والأرض وما بينهما عن فكر المرید ،
وتزول الصور الروحانية والقوى الجسمانية ، وتغيب ذاته في جملة الذوات
الروحانية ، ويتلاشى الكل ويضمحل ولا يبقى إلا الواحد الحق . ويشاهد
المرید حينئذ ما لا يصفه الواصفون ، ولا يعقله إلا الواصلون العارفون » .

جاهد محمد احمد في الحياة هوى نفسه فانتصر عليها ، وطلب « غاية الكمال الصوفي » علماً وزهداً وصبراً ومداومة تبتل ومطاوله رغب قطع طريق السالكين ووصل بعد طول عناء الى مشاهدة الحق ، وتذابوب في جملة الذوات الروحانية فصار رمزاً أمر جليل وداعية عهد جديد .

أسرَّ محمد احمد أول ما أسرَّ مما رأى من مكاشفات روحانية ، وتجليات ربانية إلى صفيه الحميم عبد الله التعايشي فقد كان ألصق أحبابه به وأكثرهم إيماناً بقدسه . فأنبأه في زيارته الثانية إلى الغرب بالفيوض النبوية التي حلت به والأمانة الكبرى التي وضعت على عاتقه تنزلاً من الملائكة النوراني ليدعو المؤمنين في بقاع الأرض قاطبة إلى الإسراع في تلبية صريخها والالتفاف حولها . ثم أسر الأمر أخرى إلى أحبائه وتلاميذه الأمثل فالأمثل . وبقي كل شيء سرّاً محجّباً في صدره وصدورهم إلى اليوم الموقوت .

أما اليوم وفي غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ - ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ فانه يعلن إلى الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق الصوفية ورؤساء العشائر والقبائل انه « المهدي المنتظر » الذي سيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، ويعيد للشرعية النبوية والتعاليم الاسلامية سابق مجدها ويوطد أسسها في الأرض توطيداً . فبعث بمنشوراته إلى من بعث من السودانين وغير السودانين يشرح لهم فيها ما رأى وما سمع يقظة ومناماً .

هكذا أعلن المهدي أمر دعوته على محبيه وتلاميذه وعلى البلاد كلها، قوى
الحجة قوى الايمان عازماً على أن يضطلع بالأمر مهما كانت النتائج ومهما
قامت في وجهه العقبات والصعاب . فارتفع النداء وتجاوب في أنحاء البلاد نخف
الناس إليه أفواجاً أفواجاً في جزيرة أبا ، ليدخلوا في دعوته وينتظموا في عداد
مريديه وأنصاره ، ويضعوا أيديهم في يده ، ويخفوا معه سراعاً الى نصره
الدين وإعلاء شأنه .

« وفي منتصف شعبان اجتمع في جزيرة أبا خلق كثير ، فقام المهدي
بعد انتهاء الصلاة خطيباً في محبيه ، وعدّ في خطابه رزايا الدين وأبان وجوه
الظلم والجور اللذين أصابا الأمة السودانية والمسلمين ، وأكد لهم أن سبب
ذلك ضعف الادارة وجورها ، وأطال في الأسباب التي كانت مقدمة لتلك
النتائج ، والأمور التي أفضت الى ثورة عرابي وما أعقب ذلك من أحداث
جسام في مصر » . فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب وكبّر الحاضرون
وهلّلو ، ثم طلب من أحيائه أن يقطعوه الميثاق والعهد ، فبايعوه على الرضا
بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً وبه إماماً ومهدياً وعلى زهد
الدنيا وعلى الجهاد في سبيل الله .

هذا هو « مهدي الله » محمد احمد الولى الصالح . فما المهدية في العرف
والميثالوجيا الاسلامية ؟ تطور الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية الى أن

أصبح من فرق المسلمين سنيون وشيعة وخوارج . وللشيعة والسنيين معتقد
بنظرية المهدي ثابت ، انتشر حتى قرّ في عرف الكافة ومعتقدها . فالشيعة
تري أن المهدي قد ظهر فعلا في نهاية القرن الثالث الهجري بظهور محمد بن
الحسن الخالص من سلالة الحسين بن علي ، وهو آخر أئمتهم الاثني عشر .
ومن ألقابه عندهم : الإمام ، والحجة ، والمهدي ، والمنتظر ، وصاحب الزمان .
ويزعمون أنه دخل سرداباً في دار أبيه « بسرّ من رأى » ولم يعد ، فهم يعتقدون
أنه لا يزال حياً وأنه سيظهر في آخر الزمان .

سنة

والسنيون يرتقبون خروج رجل من أهل البيت في آخر الزمان يملأ
الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . ويستندون في ذلك إلى أحاديث مروية ،
وأشراط محققة قبل الظهور وصفات لازمة . فهو عندهم من بني فاطمة وانه
يولد بالمدينة ، أفرق الثنايا (مفلجها) على خده الأيمن خال . وانه يخرج من
أقصى الغرب ، ومن أعلامه البيض والصفير ، وغير البيض والصفير مرقوم
عليها اسم الله الأعظم ، فلا تنهزم له راية . وخفوق تلك الرايات من شاطئ
البحر في موضع يقال له : جبل ماسه . وآية زمانه ، زمان يعم فيه الظلم
والفجور وتتداعى أركان السنة والدين ، ويتعثر الناس في زلل المعصية
والخروج على أحكام الشرع ، فيردها المهدي سيرتها الأولى عدلاً وحقاً
ورجوعاً الى حمى الدين وتمسكاً بالكتاب وتعلقاً بالسنة .

على أن علماء السنة وقفوا من تلك الأحاديث المروية موقف الخلاف ،
فمنهم من ركن إلى تصديقها فارتقب ظهور المهدي ، ومنهم من ازور عنها فلم
ينتظر ظهوره . ولكن هذا الخلاف بين السنيين لم يؤثر في اعتقاد كافة المسلمين
في نظرية المهدي ، فظهر بين المسلمين — سنيين وشيعة — على مدى الأزمان
مهديون عديدون ، كتب لبعضهم التوفيق فأسسوا دولا عظيمة بقيت بعدهم
أمداً طويلاً ، وأخفق بعضهم الآخر ولم يدركوا من أمرهم شأواً بعيداً .

ان محمد أحمد ليدكر في التدليل على هذه النظرية وإثبات علاماتها
وأشراطها في ختام أحد منشوراته في أول الدعوة « إن أبي حسنى من جهة
أبيه وأمه ، وأمي كذلك من جهة أمها وأبوها عباسى ، والعلم لله ، إن لى نسبة
إلى الحسين . وهذه المعانى الحسان تكفى لمن أدركه الله بالإيمان » . وهو بعد ،
أفرق الثنايا (مفلجها) على خذه الأيمن خال . وهو يقف من هذه الأحاديث
المروية التى اختلف فيها السنيون موقف الشارح لتضاربها المؤول لمعانها ،
المرتكن فى ذلك إلى « معرفة النفوس البشرية التى يكون لها من نقاء الجوهر
بأصل الفطرة ، ما تستمد به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ،
وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم
يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان . وتتلقى عن العليم
الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه الناس عن أساتذة التعليم . ثم تصدر

عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما نُحْمِلت على إبلاغه إليهم .
 وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة لذلك .
 ويُنهى إلى أتباعه وأنصاره في شرح ذلك كله « أنه لما حصل لي
 يا أحبابي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى — المهدية — أمرني سيد
 الوجود صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى « ماسة » بجبل قدير ، وأمرني أن
 أكتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً . فكتبنا بذلك الأمراء ومشائخ الدين ،
 فأنكر الأشقياء وصدق الصديقون الذين لا يبالون فيما يلاقونه في الله من مكروه
 وما يفوتهم من المحبوب المشتهى ، بل هم ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى
 بقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً
 والعاقبة للمتقين » .

« وحيث أن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل
 محمد المهدي بن عبد الله ، فيجب بذلك التصديق لإرادة الله . وقد اجتمع
 السلف والخلف في تقويض العلم لله ، فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين
 ولا بعلوم المتفنيين ، بل « يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب » .
 قال تعالى : « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وعنده مفاتيح الغيب
 لا يعلمها إلا هو » ، و« لا يسأل عما يفعل » ، و« يخلق ما يشاء ويختار » ،
 و« يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

«وقد قال الشيخ محي الدين بن عربي في تفسيره على القرآن العظيم « علم المهدي كعلم الساعة ، والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله » .

«وقال الشيخ أحمد بن إدريس : « يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال يفكرونها . هذا ولا يخفى علمكم أن التأليفات الواردة في المهدي منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك ، فيختلف كل منها كما علمت من أنه يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

«ومنها الأحاديث : فمنها الضعيف ، والمقطوع ، والمنسوخ ، والموضوع . بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح ، والصحيح ينسخ بعضه بعضاً ، كما أن الآيات تنسخها الآيات : وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر » .



لم تعد دعوة مهدي الله وخليفة رسوله سرّاً يتهامسه الأحياء والمريدون ، بل أصبحت خبراً مكشوفاً ونبأ متردداً على أطراف الألسنة والأفواه . وأخذ الناس يتحدثون عن ظهور كرامات وخوارق للمهدي . فقد أقسم الثقات العدول ولا يزال منهم معمران على قيد الحياة أنهم شاهدوا اسم المهدي محمد أحمد مرقوماً على أوراق الأشجار في مختلف أنحاء البلاد ، في أشجار البادية حيث لا أيد تكتب ولا إنسان مقيم . وشاهدوه في أوراق أشجار المدن المختلفة ،

في المدن التي يسكنها بعض تلاميذه ومريديه ، وفي الحواضر الصاخبة بالترف
والملاذ التي لا يؤمن ساكنوها ولا يصدقون . وأقسم الثقات العدول ولا
يزال منهم معمران على قيد الحياة أيضاً ، إنهم شاهدوا اسم المهدي محمد أحمد
مكتوباً على بيض الطيور البرية ، وعلى بيض طيور الحضر الداجنة . تسقط
البيضة واسمه فوق قشرتها كأنما خطته أنامل خطاط بارع .

إنها الكرامات والخوارق ، وكم للأولياء والصالحين والزهاد والمتصوفة
من كرامات وخوارق ، يثبتها الواقع الملموس وتقف منها العقول موقف الغرابة
والذهول ، ويقف منها العلم الطبيعي موقف الجاحد لها المتشكك في أمرها .
ولكنها تقف من العلم والمنطق موقف خوارق ما وراء الطبيعة وأسرار الغيب
والمحجبة لا يعلمها إلا مبدعها الذي لم يؤت عباده من العلم إلا قليلاً ، والذي
لا يحيطون بشيء من علمه إلا بآذنه .

إن المهدي لم يكن أول من ظهرت له تلك الكرامات والخوارق . فقد
سبقه إليها أولياء عديدون وزهاد في كل ملة ودين . وشاهدها ثقات عدول
وعياناً ولمسا ، وليس بعد العين واللمس دليل لمتشكك . وظهرت له أيضاً غير
وجود اسمه على أوراق الأشجار وبيض الدجاج والطيور كرامات أخرى أثناء
المعارك العديدة التي نشبت بين أنصاره المجاهدين وبين جنود الحكومة . فقد
شاهد أتباعه وجنوده رايات تخفق وأنواراً تتألق ونيراناً تشب في صرعى الوغى

من جنود الحكومة . والناس من تلك الكرمات إما مؤمن به مصدق بها ، أو كافر به مكذب لها ، أو متربص مرتقب نهاية الصراع يرى ويسمع ولا يستطيع أن يُبدي رأى مرتاب في شهادة عدول إثبات .

وما بال العقل المادى يقف منها موقف الساخر الذى يعدها خرافات وأوهاماً ؟ وفى الطبيعة من أسرار الكون الدفينة والغازه الغامضة ما وقف منه العلم الطبيعى ، وما وقف منه الماديون موقف الخيرة وجهل التعليل ؟ وكل يوم تسفر الطبيعة ويميط الكون عن لثام الغازه ومكنون أسرارها ما يبيلل العقول ويحير منطق الممكن المعقول . إن مُثَلات ما حدث من كرامات المهدي عديدة فى طوايا التاريخ وحقبه . صدقها بعض الناس وازور عنها البعض الآخر وبقيت برغم التكذيب لها والتشكك فيها لا صفة بتاريخ القديسين والصالحين فى كل ملة ودين .

فالسودان كله يتطلع اليوم إلى المنقذ الذى سيحطم عنه قيود الظلم والاستبداد وسوء الإدارة وباهظ الضرائب ، والناس كلهم يتطلعون أيضاً إلى هذا المهدي المنتظر الذى أعلن دعوته وأشهر أمره ، وطلب الناس إلى الجهاد فى سبيل الله لإعادة ماضى الإسلام الجيد . وقد توفرت فيه من شروط المهديّة كما يعتقدونها أمارات لا سبيل إلى نكرانها ، وظهرت له من الكرامات ما لا يقبل الشك والارتياب .

إن محمد شريف باشا نقيب الأشراف وشيخ المهدي الأول يدخل على
رعوف باشا حكامدار السودان (الحاكم العام) ينهى إليه حمادي ما وقف عليه
من أمر هذا الداعية الزاهد ، ويطلب منه الإسراع في إخماد تلك الحركة
الجديدة التي ذرّ قرنها قبل أن يستفحل أمرها ويتأطى أوارها فيصعب إخمادها
والقضاء عليها . والحكمدار يتباسم إليه لأنه يعلم ما بين الرجلين بل بين الشيخ
القديم والتلميذ القديم من سابق خفوة وقطيعه ، ويعزو قول الباشا نقيب
الأشراف إلى حسد القلوب وضغن النفوس . ولكن الحكمدار يقع في يده
منشور من منشورات المهدي فيكتب إليه يسأله جليلة الأمر لعل المهدي لم يكتبه
ولعل عدواً دسه عليه . فيرد عليه المهدي مؤكداً له ما قرأ وما سمع لأن « دعائي
الخلق إلى تقويم السنة ، والأعلام بأني المهدي المنتظر أمر من سيد الوجود
صلى الله عليه وسلم ، تعاقب على مراراً مع الهواتف الإلهية . فمن تبغى صار
من المقر بين الفائزين ، ومن خالف خذله الله في الدارين ، وصدّه بقوته التي
يعجز عن معارضتها جميع العالمين » .

أدرك رعوف باشا أن الأمر حق لا باطل وجد لا هزل فيه . فاستقر رأيه
على إرسال مندوب لدعوة المهدي إلى الخرطوم . فقبله رسول الحكومة في
٧ أغسطس سنة ١٨٨١ ليسارع إلى مقابلة الحكمدار ولي الأمر الذي تجب
طاعته ، ولمقابلة العلماء من رجال الدين لمناقشته فيما جهر به ، ولكن

لا طاعة بعد اليوم لحكمدار ولا ولي للأمر غير المهدي . وهدده الرسول بقوة الحكومة وجندها ، وإنه لا قبل له بالوقوف في وجهها ومحاربتها وشق عصا الطاعة عليها . ولكن في الوجود من القوى الروحية والمعنوية ما لا تستطيع قوى المادة والبطش أن تتغلب عليها ، إذا آمنت النفوس وخلصت القلوب . فالمهدي يستطيع إذن خوض غمار الحرب ضد الحكومة وجيوشها بتلك القوة من أعوانه الذين كانوا يجلسون حوله فهم كلهم « راضون بالموت في سبيل الله وباذلون أرواحهم في رضى الله ورسوله ومهديه » . ذلك أول النفير واندلاع السنة النار .

علم المهدي أن الساعة قد أزفت ، وأن الحكومة ستنازله القتال . وأرسلت الحكومة باخرتين بهما فضيلتان من المشاة ومثلهما من الفرسان . فلما رست الباخرتان في ليلة الجمعة ١٦ من رمضان سنة ١٢٩٨ هـ — ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ سار الجند نحو القرية وأنصار المهدي يترقبونهم بين الأشجار والأيك الكثيف المتشابك ، وهم لا يزيدون على حفنة قليلة من الرجال ولا يحملون « من السلاح سوى العصي والهرافات والرماح ، وعدد العصي يربو على عدد الرماح ، ولم يكن عندهم من السيوف غير سيفين أحدهما للمهدي والآخر لأحد أقاربه » . وانطلق الرصاص من جند الحكومة والليل أليل والأحراش كثيفة ،

ونظام الجند واهن مفكك والقائدان مختلفان . فوثب عليهم الأنصار وأبادوهم
إلا قليلا بالعصى والرماح ، وارتدت الباختران تدافعان التيار هرباً صوب
الخرطوم لتبلغا الحكمدار نبأ الكارثة ، وتذيعا في الناس نبأ انتصار المهدي
وأنصاره العزل على الجنود المدججين بالسلاح .

أدرك المهدي أن الحكومة ستلاحقه بقواتها لأخذ ثأرها ورفع مهابتها في
عيون الناس والقضاء على الفتنة التي لم تكن لها في الحسبان . فهاجر المهدي
بأنصاره إلى جبل ماسّة الملاصق لجبل قدير ، بعد أن نظم جنده ونصّب خلفاءه
فأعطى رايته الزرقاء لصفية عبد الله التعايشي ولقبه بخليفة أبي بكر الصديق ،
وأعطى الراية الخضراء للخليفة على وَدْ حُلُو خليفة عمر بن الخطاب ، وأعطى
الراية الحمراء لابن عمه محمد شريف خليفة السكرار (علي بن أبي طالب) وترك
الراية الصفراء ليعقّد لواءها على السنوسي خليفة عثمان ابن عفان ، وكتب له
بذلك فيما بعد فلم يرد عليه ، وبقيت تلك الراية بدون خليفة حتى موته . وزين
المهدي تلك الرايات والأعلام باسم الله ورسوله ومحمد المهدي خليفته . وجعل
صاحب الجيش عبد الله التعايشي ، وخص كل خليفة بنحاس (طبل) كبير
خاص به تتميز ضرباته عن الطبول الأخرى حينما تستنفر الرايات والجيوش
للحرب أو العرضة (الاستعراض) التي كانت تقام في كل يوم جمعة ، فيقف

الجند متجهين نحو القبلة كوقوفهم للصلاة . وكانت رقع ثياب أنصاره الدراويش من ألوان تلك الرايات .

وقد المهدي شؤون القضاء للشيخ محمد أحمد جباره ولقبه بقاضى الإسلام ، وجعل دونه قضاة ونوابا آخرين عديدين . وخص القضاة بالحكم فى المسائل الشرعية والأهلية . والنواب لشؤون الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال والشكاوى والظلمات التى ترفع إليه ليعرضوا عليه ملخصها فيمدهم بأرائه ومشورته . وعين نوابا آخرين من أهل النظر والعلم للفصل فى شؤون ما قبل المهديّة . ونظم بيت المال تنظيما إسلاميا بحتا ، ففرض الزكاة على النقود والماشية ، والعشور على الزرع والمحصول . كل ذلك مؤقتا حتى تستقر الأمور وتنبج نتائج الصراع الذى نشب بينه وبين الحكومة . فاذا انتهت مقاليد الأمور إليه وتوطدت أركان المهديّة نظر فى هذه الشؤون مرة أخرى فعدّلها وزاد فيها . هاجر المهدي وأنصاره إلى جبل قدير ، إلى ماسة بغرب السودان . وسمى الذين انتقلوا معه بالمهاجرين والذين أيدوه من قبل بالأنصار ، وأطلق عليهم غير ذلك الأحاباب والإخوان . سبق المهدي انتصاره على جند الحكومة إلى كردفان ودارفور وشرق السودان وشماله وجنوبه . وأخذ الناس يهرعون من كل صوب للانضمام إليه والانضواء تحت ألوّيته ، والاستشهاد فى سبيل الله ورسوله ومهديه ، ويعدون العدة للوثوب على عمال الحكومة فى كل مكان ،

وخوض غمار الحرب الدينية . فبطشوا بجامعى الضرائب وحاصروا الحاميات
وذكروا الثارات القديمة ، فقد دنت ساعة تحطيم القيود والخلاص من وطأة
المظالم والاستبداد . فالويل للترك ! الويل للترك !

تغلب المهدي في هجرته تلك على المختار مك (ملك) جبل الجراة ،
وفتك بجيوش راشد بك وأبادهم عن آخرهم . إن المهدي يخرج اليوم من نصر
إلى نصر فيزيده ذلك تمكيناً في قلوب أنصاره ويجتذب إليه نفوس المترددين
إلى التصديق به . وفزع رءوف باشا فحضر فشوده في الجنوب وطلب النجدة
من مصر ، ومصر من أمرها وأمر العربيين في أعقاب سنة ١٨٨١ في شغل
عن السودان شاغل . فعزل رءوف باشا وعين عبد القادر حلمي باشا خلفاً له
فوصل الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ .

كان المهدي على علم تام بما يدور في مصر ذاتها . فقد كان له فيها من
يوافيه بأنبيائها وأحوالها . وإن أحد أولئك الأعوان ليكتب له : « إن
عبد القادر حلمي باشا سيسافر قريباً إلى الخرطوم ، وأن الأحوال في مصر
تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، وأن الثائرين العربيين تقوى عزائمهم كل يوم ،
وأن حكومة مصر يلوح عليها أنها لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان .
وبلغني أن الحكومة ساعية في إبرام معاهدة سلم مع الحبشة ليتاح لها استقدام
جنودها المعسكرين في حدودها لاستخدامها في محاربتكم » .

وورد على المهدي أيضا من ذلك الصفي « أن الحكومة الخديوية منقسمة إلى قسمين : أحدهما خديوي والثاني وطني برئاسة رجل من متأدبي الشعب يدعى أحمد بك عرابي ، كانت أخلاقه منذ نشأته ميالة إلى سعادة السواد الأعظم من فلاحى مصر . هذا ، وإن الحكومة نائمة على رءوف باشا وناسبة إليه كل الذى جرى من أمر دعوتكم . وسيصلكم عبد القادر باشا حكمداراً على السودان ، لأن الخديو يتهمة بأنه مشايع لرجال الحزب الوطنى ، ورجال الحزب الوطنى يتهمون به بأنه من حزب الخديو . وتنوى وزارة محمود باشا ساعى البارودى التى هى الوزارة الوطنية التخلص منه بإبعاده إلى السودان ، وهو دليل قاطع على أن الحكومة الخديوية لا تهتم بأمر السودان » .

ووصل عبد القادر باشا إلى السودان وأخذ فى تدبير الأمور . فقامت حوله دسائس قنصل إحدى الدول ، ووشى به بأنه يريد فصل السودان عن مصر بتأييد الفرنسيين . وطالب عبد القادر باشا بالإمداد والنجدة فلم يجب له طلب ، فوطد نفسه على أن يعمل بما لديه من موارد قليلة وجند قليل وسلاح قليل .

إن جاسوس المهدي يكتب إليه من القاهرة مرة أخرى بأنه قد « اشتد الجفاء بين عبد القادر باشا والحكومة الخديوية . فالجناب الخديو يعتقد أن عبد القادر باشا ساع إلى فصل السودان عن أملاكه واستقلاله بالحكم

عليه . والعراقيون يعتقدون أن عبد القادر باشا قد أنقذه الخديو لحشد جيوش جرارة يقتص بها منهم على تمردهم على الخديو . على أن ذلك الاعتقاد من الطرفين يدل على مهارة تلك الدولة ذات المآرب في السودان ، وعليه فكونوا على يقين بأن عبد القادر باشا لا يستطيع مهاجمكم قبل أن تستولوا تماما على مدينة الأبيض عاصمة كردفان . »

أكانت بين المهدي وبين عرابي والعراقيين صلات ومكاتبات ؟ إن بعض الأسانيد تشير إلى هذه الناحية دون أن توجد الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها لتأييد هذا الرأي . غير أن المهدي فكر حينما حوصرت الخرطوم في أسر غوردون حيا ليفتدي به عرابي .

وكان لزعماء العراقيين في المنفى رأي جميل في المهدي أورده الأستاذ الإمام محمد عبده في جريدة « العروة الوثقى » التي كان يصدرها في باريس هو والسيد جمال الدين الأفغاني . كما أن محمد عبده حينما اشتدت حركة المهدي في السودان وذهب إلى لندن بدعوة من صديق مصر والمصريين المستر بلنت لمحادثة رجال السياسة الانجليزية في الشؤون الشرقية ، ولاستطلاع آرائهم ونواياهم بشأن القضية المصرية ، وبتعبير السيد جمال الدين الأفغاني « ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية ، وليسبر غور المطامع الانجليزية » دار حديث بين الشيخ الإمام ومندوب جريدة « بول مول غازيت » في ١٧

أغسطس سنة ١٨٨٤ ، فسأله المندوب فيما سأله عن الحالة في وادي النيل وعن المهدي فقال

الشيخ : « لا خطر على مصر من حركة المهدي ، إنما الخطر من وجودكم أتم فيها . وإنكم إذا غادرت مصر ، فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ولن يكون في هجومه أدنى خطر . وهو الآن محبوب من الشعب (المصري) لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبي ، وسينضمون إليه عند قدومه » .

المندوب : « أليس السودانيون قوما متعصبين » ؟

الشيخ : « ليس السودانيون أكثر تعصبا مني . فحينما كنت أعلم الفلسفة في القاهرة كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسي ، بينما كان هناك أربعة وثمانون طالبا من السودان وكانوا جميعا يحضرون للاستماع إلي ! نعم . ليس السودانيون متعصبين . لكنهم إذا شعروا بالخطر الأجنبي يتهدد بلادهم ثاروا وأصبحوا حينئذ متعصبين ، وما مثلهم في ذلك إلا مثلكم أتم إذا رأيتم جيشا من المسلمين في شوارع لندن » .

المندوب : « ألهذا الشعور علاقة بخبر الهياج في بلاد العرب » ؟

الشيخ : « الخبر صحيح . وكنا ننتظره منذ زمان ، ولا شك في أن تعاهدكم مع الأحباش قد سهل هذا الهياج . فالمسلمون إذا هددوا قاموا للجهاد ،

وليس أهل اليمن أشد تعصبا من أهل السودان ، ولكنهم يحبون حريتهم كما يحبها العرب جميعا .

ألهذا الموقف علاقة بامتناع الحكومة الخديوية عن إمداد عبد القادر باشا بما طلب من جند وأموال ؟ أفكر العراقيون في أن تكون الثورة عامة في أرجاء وادي النيل حتى يكون الإصلاح إذا كملت بالنجاح عاما أيضا ؟ أم إنه توافق الزمن ، وتشابه الأسباب ؟ ومهما يكن من شيء فذلك رأى قادة العراقيين في المهدي ، وذلك أيضا كان ظن المهدي في العراقيين .

وصل عبد القادر باشا إلى الخرطوم ولا يزال المهدي في جبل ماسة . ولكنه اتصل بأعوانه وأحبابه في الأبيّض فقرّ الرأي على مهاجمتها . والثورة متأججة النيران في كل مكان .

إن جيغلر باشا نائب الحكم داريلح على الحكومة المصرية في أن تأذن له بسحق المهدي في قدير ، وعبد القادر باشا يعارض هذا الرأي . وتنفذ إرادة جيغلر ويخرج يوسف باشا الشلالى بجيشه اللّجب ليلاقي حتفه على ظبا سيوف المهدي وأنصاره في وضح الصباح بين مهلل ومكبر ، فلم ينبج منهم غير قلة لاذت بالفرار في الأودية والأحراش . أيرتاب بعد كل هذا في دعوة المهدي مرتاب ؟

الطبول تدق ، والأعلام ترفرف ، والثورة في كل قرية وكل مدينة ،

والحاميات محاصرة ، ورءوس الباشبوزق وجامعى الضرائب تطاح فى كل مكان . فكدفان ثائرة ودارفور ثائرة ، وأنصار المهدي يتوغلون فى الجزيرة ويهاجمون سنار . وقبائل الهدندوة يستثيرهم « عثمان دقنة » فى سواحل البحر الأحمر على التمرد والعصيان ، والبشارية ينهبون القوافل على حدود مصر ، والياس باشا وُدَّ ام بَرِير^(١) تاجر الرقيق ومدير كدفان السابق يستحث المهدي على مهاجمة الأبيّض ، والناس من كل صوب يترنمون وهم يسارعون الخطى إلى المهدي فى قدير .

هَوَاىَ ، هَوَاىَ ، أسيروا للمهدي ، فى قديرو^(٢)

إن وادى النيل كله ليستمع إلى صدى تلك الطبول وأنبائها ، وأوروبا البعيدة ترهف الأذان إلى الدوى المتجاوب من أنحاء السودان المصرى . جمع المهدي شمله ووضع خطته المحكمة لمهاجمة الأبيّض والاستيلاء عليها . فهو عالم بأنها إذا سقطت فى قبضته فقد سقط إقليم كدفان كله فى يده . وتم له الاستقرار فى جبال النوبة بعد أن دوّخ جبالها وأثناءها جبالا جبلا ، وسهل عليه إسقاط دارفور الإقليم الخصب المترامى الجنبات . فإذا انتهى كل ذلك فلن يجد مقاومة تذكر فى السيطرة على السودان بأسره ، ويجب أن

(١) البرير : ثمر الاراك .

(٢) أى أن هَوَاىَ وما أرجوه أن أسير إلى المهدي للانضمام إليه فى جبل قدير .

يتم ذلك قبل أن يهيمن عبد القادر باشا حلمى على حكمدارية السودان وشؤونه
ويصبح سيد الموقف. فعبد القادر باشا ليس كمن عرف أنصاره في «ابا» من
جند وضباط ، وليس كراشد بك أو الشلالى باشا أو محمد سعيد باشا مدير
كردفان القصير البدين الذى لقبه أنصار المهدي «بجرباب الفول» ، وليس
كرءوف باشا الحكمدار المتساهل الذى لا يكثر بشيء ولا يطلب غير
السلامة في معالجة الأمور. فعبد القادر صلب القناة ، أشوس ، واسع الدهاء ،
خبير بفنون الحرب ، عليم بتدبير الأمور ، قدير على إدارة دفة السياسة ، بعيد
النظر ، بطّاش نفاذ ، ولّاج خرّاج .

زحف المهدي على الأبيّض ، ومن قبل قد تم الاتفاق بينه وبين أحبابه
بها أمثال الياس باشا وغيره من السراة والأعيان على كل شيء منذ زيارته
الثانية إلى غرب السودان قبيل إعلان دعوته ، وله فيها من الأعوان والأحباب
خلق كثير . التجار المتدمرون من منع تجارة الرقيق واحتكار الحكومة
لتجارة سن الفيل . ودافعوا الضرائب الذين لم يبق لهم من حطام الدنيا غير
آثار السياط والجلد فوق ظهورهم . والفقهاء الذين أعلى من شأنهم ظهور
صاحب الوقت المهدي المنتظر من بينهم . وأحباب الطريق الذين لقوا في
زاهد جزيرة أبا الرجاء المؤمل .

ومن غير هؤلاء وأولئك أنصار مؤمنون بالمهدي ودعوته يبيتون في الليالى

السابقة للمعارك بين راكم وساجد وقائم وعابد ، يهالوت ويكبرون متشوقين
اطلوع شمس الغد لخوض المعارك ورى ظمأ السيوف والرماح . فمن استشهد
منهم في حومة الوغى فقد لقي ربه في جنات الخلد راضياً مرضياً ، ومن أئتمنته
الكلوم والجراح فقد نال من أوسمة الحسنى والفخار ما لا يدانيه في الوجود
شرف أو فخار ، ومن خرج من المعمة سليماً مُعافى فقد ساهم في الجهاد والقتال
في « شأن الله ورسوله ومهديه » .

هجم المهدي على الأبيّض لخوض أولى المعارك الثلاث الفاصلة في تاريخ
المهدية في السودان ، والأبيّض محصنة بالجند منيعة بالسلاح والخنادق والفن
الحربي . وسلاح الفريقين غير متكافئ والفن العسكري غير متوازن .
والأنصار لا يملكون من الأسلحة سوى ما غنموه في المعارك السالفة ، وما
انتزعوه من أسلاب أعدائهم المنهزمين . ولكن أين تلك القوة كلها من حماس
مجنون ، وشجاعة مستهترة بالموت ، وإيمان بالله ، وشوق إلى القتال والاستشهاد .
والمهدي قبيل كل معركة يبارك أنصاره ويحثهم على الفناء في سبيل الله ويثيرهم
ببلاغته الساحرة وآياته البينات ، فيمتدافعون راكضين إلى الموت تدافع الموج
المشرّتب الصاحب إلى سيف البحر .

الطبول تدق ، والأعلام المتباينة الألوان ترفرف ، والسيوف المسلوطة
تلمع وسط النقع والغبار المتصاعد ، والرماح المشرعة تلوح كغابة عظيمة

متحركة ، وأصوات التهليل ودوى النحاس - نحاس الحرب - يطغى على
صهيل الخيل العتاق وحممتها . وهكذا دوماً وفي كل مكان كانت حروب
المهدى ومعاركه . والأنصار يطبقون على الأبيّض من كل جانب ورصاص
الحامية المحكم الرميات يتدفق واكفاً مدراراً ، فيلاقيه الأنصار بالصدور
غير مبالين . وتشتد وطأة القتال ويستبسل الفريقان ، فيقف الموت حيران
أى الكفتين يرجح . ويشتد فتك الحامية بالأنصار فيرتدون قليلاً الى رتبة
أخرى بعد أمد وجيز يضيّقون فيها الحصار على المدينة ، حتى يكاد أهلها
يأكل بعضهم بعضاً من شدة الجوع . وتهيّفت عليها الأنصار فيحطمون
أسوارها ويقتحمون معاقبها ، ويجتازون خنادقها ، ويكسرون زرائبها ، ويقضون
على حاميتها التى أنهكها الحصار وهدها الجوع ، وأودى بروحها المعنوية اليأس
وانقطاع الإمداد .

ويقبل سعيد باشا مدير كردفان وضباطه وموظفوه مستسلمين يبائعون
المهدى ويدخلون فى عداد أنصاره على دَخل من غدر وردّة ، فينكشف
أمرهم وتطاح رؤوسهم . ويستقر الأمر بيد ولى الأمر الجديد . ويستولى
المهدى على غنائم لا حصر لها من سلاح وعتاد وأموال ، وغنائم أخرى
معنوية لا حدّ لها من تأييده وإيمان به ، ترفع شأنه وتعالى قدره وتؤكد
للناس مهادنته .

سقطت الأبيّض وعبد القادر باشا حلمى قد انتهى من تحصين الخرطوم
وسنار وتسليح الجنود وتنظيم الكتائب ، ومطاردة أنصار المهدي في سنار
والنيل الأبيّض . ثم رفع صوته ملجأ يطلب مدد المال والسلاح والجند من
مصر فأصم الاحتلال أسماع المسؤولين عن تلبية ندائه . ومع ذلك كله
فعبد القادر باشا يحضر المعارك بنفسه ويديرها بثاقب عقله وفنه فيفتك بالأنصار
ويدحرهم في كل ميدان يلتجم معهم فيه ، حتى ضج فرسان الثورة من بأسه
وخافوا مصاولته وبطشه ورفعوا أيديهم متضرعين : « يا قادر ! اكفنا شر
عبد القادر » .

واصل عبد القادر باشا مكافحة الأنصار وقمع حركتهم على الرغم من
انتصارات المهدي الباهرة في الأبيّض وغيرها . وكانت خطته التي رسمها أن
يرابط بجيشه وأسطول البواخر النيلية على طول مجرى النيل الأبيّض ، وأن
يترك المهدي في بيداء كردفان الى أن تصله النجدات من مصر . ولكن
أنامل خفية تعبت من وراء ستار الاحتلال في مصر لأمر مبيّت لمصر والسودان ،
فحملت الحكومة المصرية على استدعاء عبد القادر باشا من السودان في
بكور سنة ١٨٨٣ وتعيين علاء الدين باشا خلفاً له ، وسليمان نيازى باشا
قائداً عاماً ، وهيكس باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش . ومن قبله ذهب

الكولونل ستيوارت لدراسة حالة البلاد وكتابة تقرير شامل عنها اهتمت له
وزارة الخارجية البريطانية ايما اهتمام .

استاء السودانيون والمصريون لاستدعاء عبد القادر باشا ، واستاء معهم
الأجانب وقناصل الدول في الخرطوم ، فكتبوا واستعطفوا الخديو توفيق
لإلغاء ذلك الأمر وإبقاء عبد القادر باشا في منصبه ، لأنهم كانوا يرون فيه
الشخص الوحيد الكفء القادر على منازلة أنصار المهدي ومناهضتهم . ولكن
الأنامل الخفية تعبت من وراء ستار .

إن جاسوس المهدي في القاهرة يكتب له نبأ تولية محمد علاء الدين باشا
حكمادراً للسودان - فكان آخر حاكم عام مصرى عليه - وإلغاء نظارة
السودان ، ويطمئنه بأن « علاء الدين رجل لا يخشى منه أبداً » ، ويسترسل
جاسوس المهدي في خطاب آخر يشرح له فيه خفيات ما يدور من أمور في
مصر وإشاعات ونوايا حول السودان تقف منها حكومة مصر - في محنة
الاحتلال - موقف من لا يستطيع دفع غائلة ، وتمسك بحق ، ونظر بعيد في طوايا
المستقبل . وكيف السبيل إلى ذلك كله أو بعض ذلك ، والاحتلال يدير زمام
الأمور كما يهوى وتهوى سياسته ومقاصده .

تحركت الأنامل الخفية كشأنها دائماً ، فألغت الجيش المصرى - جيش
عربى - الثائر المتمرد في مصر ، وأنشأت بدله جيشاً من فلول ذلك الجيش ،

وقررت إرساله إلى سحق الثورة في السودان . عجيب أمر ذلك القرار . ثوّار يرسلون لمكافحة ثوّار ، وفلول مهزومة خائرة الروح المعنوية يُطاح بها لمناضلة جموع متوثبة قوية الروح المعنوية ، سكرى بنشوة الانتصارات المتعاقبة ، مجنونة بمبادئها تنشد الموت مستشهددة في سبيلها .

وما لولاة الأمور في مصر يتصاممون عن سماع آراء عبد القادر باشا حلمي ؟ وما لهم لا يستجيبون لمطالبه بعد أن حقق انتصارات عديدة على الأنصار . إنهم لو أصغوا قليلا لما قال لتغير تاريخ السودان ، ولكانت الحالة في وادي النيل اليوم غير ما هي عليه . ولكن للأقدار تدبير فوق كل تدبير .

إن حملة هيكس التي أرادت الحكومة المصرية تسييرها لهزيمة المهدي قد عارض فيها عبد القادر باشا حلمي العليم بشئون السودان كبيرها وصغيرها ، العارف بمفاوزه وأرجائه ، المدرك لأحوال قبائله وأعيانه ، البصير بتدبير أموره ، الواقف على الوسائل الناجعة لاستقرار أحواله . ولم يرض عنها السودانيون والمصريون في السودان لمعرفتهم بحقيقة الموقف ، فقدموا ألوف العرائض بإيقافها والأخذ بغيرها من الآراء العسكرية الممحصنة السديدة « إلى المعية السنية والوزارة المصرية ، ولكنها لسوء الحظ لم تلق قبولا . ولم يقتصر رفع تلك العرائض على المصريين والسودانيين بل اشترك معهم فيها الأوربيون المقيمون في السودان . وتدخل الهر هنزل قنصل النمسا والمجر في الخرطوم بصفة

شبه رسمية » . ولكنها كلها لم تجد نفعا ، ولم تلق لها أذنا صاغية . انحركت تلك الأنامل الخفية من وراء ستار ؟

إن فلول جيش عرابي تساق مدداً للمعركة الثانية الفاصلة في تاريخ المهديّة ، وما يفعل جيش ظنّ جنوده أنهم مدفوعون دفعاً للتخلص منهم في تلك المفاوز السحيقة والأرجاء النائية بجيش يلهب حماساً ويتشوّق للموت استشهадاً ؟ وصل هيكس باشا رئيس هيئة أركان الحرب الجديدة الى السودان فأحرز انتصارات قليلة على جموع الأنصار في النيل الأبيض نحال نفسه قادراً على قهر الآخرين في مفاوز كردفان .

واعد هيكس باشا عدته وجهاز قواته وتقدمت الحملة العظيمة بجنودها ومؤنّها وجِمالها وفرسانها من « الدويم » عن طريق « شات » ، وقوامها ثلاثون ألف مقاتل ، بين جنود نظاميين وغير نظاميين ، ومعها المدافع والأسلحة وهيئة أركان حرب من مصريين وأجانب . فكان هيكس باشا قائداً عاماً ، وعلاء الدين باشا نائباً له . ورافقها من مراسلي الصحف الأجنبية مكاتب الديلي نيوز والجرافيك والتيمس ، ولكنه تأخر في الساعة الأخيرة لمرضه فنجّا من الختوف التي أودت برفاقه ، وبعض كبار الموظفين والأعيان .

الطريق طويل ، والقيظ نيران الجحيم المتوقدة ، والماء قليل نذر ، وقواد الجيش وضباطه العظام مختلفون رأياً متجافون تفاهماً ووداً . والجنود يتساقطون

إعياء ووجلاً . والعدو يناوشهم من كل جانب ، والدليل مختل يضل الجيش الذي أنهكه الحر اللافح وسرى الليل البهيم . فأوكل المهدي به أحد قواده يشاغله بالمهاجمة ليلاً وبالجلبة والصياح نهائراً ، فإذا تاهب للقتال نكص راجعاً على أعقابهِ ، وإذا استعد للراحة عاوده مرة أخرى ، وهكذا دواليك إلى أن فقد الجنود والضباط الصبر والجلد .

كتب المهدي إلى هيكس باشا ينذره ويطلب منه وجنوده الدخول في طاعته والإيمان بدعوته . ولكن هيكس القائد سيرد عليه يوم يلتقي الجمعان في « شيكان » . وزحف المهدي إلى « الملبس » يناوش جيش الحكومة ويضيق عليه الخناق . وأخذ الرصاص يدوى رذاذاً من عصر يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ودام الليل كله فكان يتساقط من السهل المتدوال والأحراش القريبة ومن كل مكان . وأين جيش المهدي وفي أي مكان يعسكر ؟ لم يدر هيكس عن مكان خصمه وقوته شيئاً . وأشرق يوم الأحد قائظاً متوهجاً وجنود الحملة لا يجدون ما يطفئون به الظأ ، ورصاص العدو ينهمر عليهم من كل جانب فيتخطفهم واحداً بعد واحد .

ويكتب « أودونوفان » مراسل الديلي نيوز في مذكراته ما سى تلك الجزيرة الحزنة فيقول « إن خادمي جوستاف كلوتس قد فر إلى المهدي ، فأى

مصير يرتقب جيشنا يوم يدرك خادم أوروبى ألا نجاة له إلا بالفرار إلى أولئك
المتوحشين . وها أنذا أكتب مذكراتى وأحرر رسائلى ولكن من ذا الذى
يحملها إلى وطنى ؟ »

ويدون اللواء حسين مظهر باشا فى مذكراته بتاريخ الأحد ٤ نوفمبر :
« أنا حسين مظهر باشا من الذين تخرجوا فى مدارس مصر الحربية ، وأنا
الآن قائد الفرقة الثالثة من الجيش المصرى فى السودان . وقد وصلنا إلى هذا
الموضع « شيكان » منذ ثلاثة أيام . ومنذ أمس فقدنا الماء وصنف البطيخ
الصغير الذى نشرب من مائه فبلغ منا الظأ فى هذا اليوم مبلغه ، ونيران العدو
تهطل علينا كالطر ، وقد هلك أكثر دواب حملنا وهلك أكثر عساكرنا ،
واختل النظام وتمرد الجنود على الضباط وهم هائجون منذ أمس يطلبون قتل
الجنرال هيكس ، ونحن وسعادتو محمد علاء الدين باشا نجهد فى إخفائه عنهم
أنفة من ان يقال أن الوفا من المصريين قتلوا رجلا أجنبيا بينهم لأسباب
سياسية . وإننى أكتب هذه السطور والموت محقق بنا من كل جهة ولا أمل
لنا فى الحياة إلى غد (الإثنين) إلا إذا لم يهاجمنا العدو . وجرة الماء بيننا
الآن أندر من الكبريت الأحمر . وقد كنت أود التطويل ولكن طراً على
ما اضطرني إلى ترك الكتابة والتأهب للموت ومفارقة هذه الحياة . وأختم
هذه النبذة بالأسف ليس على حياتى ، بل على ألوف من أبناء وطنى ماتوا

باستسلام حكومتهم إلى أعدائهم الإنكليز فوا أسفاه ثم وا أسفاه !

وتنفس صبح الإثنين فأمّ المهدي جيشه ورفع بعد الصلاة حسامه وكبر
ثلاثاً فاندفع جنوده نحو الجيش . ولم يمض غير قليل حتى أبيدت الحملة إلا بضعة
مئات منها . واستبسل كبار الضباط استبسالاً عظيماً وأبدوا شجاعة فائقة .
وأقبل المهدي في اليوم التالي إلى موضع المعركة وكما دنا منها رفع صوته مبتهجاً
« الله أكبر ... فتح ربى ونصر ! فيردها من حوله بأصوات كهزيم الرعد ،
ويكبر لتكبيرهم الأنصار المنتشرون داخل تلك الغابات والأحراش » .

ثم عاد المهدي بجيشه إلى الأبيض فائزاً منصوراً فخرج أهلها لاستقباله
والجموع الزاخرة تهلل وتكبر ، والفتيان والشيوخ والاماء والنساء يتزاحمون
ويلقون بأنفسهم في طريق سيره وتحت أقدامه تبركاً وتقديساً ، والأنصار
والأحباب ثملون بحمياً الفوز والانتصار .

إن بركات صاحب البركات تتجلى سافرة للعيان كل يوم ، فلم يعد بعد
معركة « شيكان » شك لمرتاب في مهديته ورسالته . فمن آمن به من قبل فقد
ثبت واطمأن قلبه ، ومن انضم إليه على دخل وتربص الدائرات به فقد زايله
أمل التربص وحلول الدائرات . وإشرأت الأعناق وامتدت العيون من النيل
الأبيض إلى البحر الأحمر ، ومن كردفان حتى حدود « وادّاي » تنتظر وثمة

أخرى من وثبات مهدي الله وخليفة رسوله الذي أحدث عجائب الخوارق والكرامات .

وما ذا بعد اليوم ، استسلمت دارفور واستسلم معها سلاطين بك (باشا) ، وألقت بحر الغزال السلاح وسلم مديرها لبتون بك الانجليزى . وعثمان دقنه يثير قبائل البحر الأحمر على الحكومة ويدعوها لمبايعته ، فيسقط سنكات ، وينتصر فى آبار التيب وطماى بالقرب من سواكن ، ويكتب إليه المهدي من الأبيض يبلغه نهاية حملة هيكس « التى بلغكم أنها حضرت إلينا من طريق الخرطوم فوصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى ، وقتلناها عن آخرها شر قتلة بما فيها الرؤوس الكبار أحدهم علاء الدين الحكمدار ، والثانى هيكس النصرانى ، والثالث حسين مظهر وغيرهم من الضباط . والآن جميع مدافعهم وأسلحتهم بأيدينا وهى شىء كثير جداً . وكان هلاكهم فى يوم الإثنين ٤ من المحرم سنة ١٣٠١ هـ — ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ فانقرضوا فى أقل من ساعة ، واشتعلت النار فى أجسامهم بأمر الله السماوى » .

وتوالت الحروب فى شرق السودان فهزم عثمان دقنه بيكر باشا مرة ثانية وثالثة فى التيب ، فسقطت طوكر ، واحتلت انجلترا سواكن واحتجت تركيا على ذلك الاحتلال فتعلل لورد دوفرين سفير انجلترا فى الأستانة — ٦ من مارس سنة ١٨٨٤ — « بأن الحوادث اضطرت الحكومة البريطانية إلى اتخاذ بعض

الوسائل الوقتية لحماية ثغور البحر الأحمر ، ولكنها عازمة عند ما تعود السكينة
 ألا تعمل شيئاً بغير مشورة الباب العالي « أترى عادت تلك السكينة ؟ وأين
 السكينة والاستقرار ؟

الثورة متاججة النيران في كل مكان ، والأمصار تسقط في قبضة المهدي
 واحداً بعد آخر . قالجزيرة ودنقلا ، وكسلا ، وبحر الغزال رفعت راية العصيان
 وشهرت السلاح . وتقدم الأمير كرجساوى الى اللادو عاصمة خط الاستواء ،
 وهزم أمين باشا مديرها ، ثم قفل راجعاً إلى بحر الغزال ليعيد الكرة على خط
 الاستواء ، فأمهله المهدي أمرها حتى يستولى على الخرطوم ، فيقطع بذلك خط
 المدد على كل من يحاول نجدها وإيقادها .

أصبح استيلاء المهدي على السودان كله مسألة وقت بعد تلك الانتصارات
 العظيمة المتوالية ، وكانت كارثة جيش هيكس حديث السودان والعالم الإسلامي
 بأسره الذي سمع من أنباء مهدي السودان كثر أقاصيص الخوارق والكرامات .
 فأقبلت الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارته والتبرك برؤيته
 والانضمام إلى عداد جنوده . وكان المهدي في غضون إقامته بالأبيض يكاتب
 عماله في أطراف البلاد القريبة منه ليمدوه بالمقاتلة والجنود ، حتى اجتمع حوله من
 الأعراب عدد لا حصر له وكلهم لا يطلبون غير الشهادة والانتظام في سلك
 المجاهدين في سبيل الله .

فلما شحّت مياه الآبار في الأبيض ، رحل المهدي بأنصاره إلى الرهد ،
 حيث الماء وفر والحل خصيب . فاذا أضحت الشمس أو تمايلت للدّوك استظل
 المهدي بدوحة وارفة مهدلة الأغصان كثيفة الظل يعظ عقب كل صلاة أحبابه
 وأنصاره « ويحثهم على أمرين الجهاد في سبيل الله ، والطاعة العمياء للمهدي
 خليفة رسول الله ، فبلغت الحميّة الدينية مبلغاً لا يتصوره خيال متخيل بين
 أتباع المهدي لا فرق بين ذكر وأثى وشيخ وشاب . وكان منتهى أمانهم
 الشهادة وحدها . حتى أصبح الأب يدعو لابنه بها ، وحتى أصبح أهل الشهيد
 يقيمون ليالي الأفراح ويحییء الناس لتهنئتهم بفوز ميتهم فوزاً عظيماً ، ويشربون
 المرطبات ويأكلون الحلوى وهم يقرأون « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله
 أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ،
 ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
 والمهدي بين هذه الشؤون وتلك ، يوطد كل يوم أسس تعاليمه ودعائها
 مجتهداً مجدداً لا يتقيد بغير منصوص الكتاب والسنة والاستخراج منهما والنظر
 الصحيح الذي يسير المنطق السديد . وهو أيضاً يفرض فيما يفرضه ، تعاليمه
 الاجتماعية القائمة على الزهد والتشف والفراغ من الدنيا والإقبال على ما عند
 الله من حسن الجزاء والثواب والتطلع إلى الجهاد والاستشهاد - تعاليم دقيقة
 شديدة كتعاليم وهابيّ جزيرة العرب وكتعاليم أطهار كرومول ، بناها على

ما أبصر ولمس يوم قام بجولاته ورحلاته في أنحاء السودان ، فشاهد إفساد الترف والبذخ والشكالب على الذات للنفوس والقلوب . أذكر المهدي يوم وضع تلك التعاليم الحازمة وفرضها عنوة على أحبائه وأنصاره وقفته تلك بياب أستاذه محمد شريف يوم احتفل بختان ابنه ؟ فندد التلميذ بخروج الصوفي الكبير وامام الطريق على تعاليم الإسلام ، فأقصاه من عداد تلاميذه ، فأدخله في عداد الحواريين والمصلحين ، ودفع به إلى غاره في جزيرة أبا و إلى تأملاته وقيامه وصيامه ففتحت له من أبواب المشاهدة والروحانيات ما وصل به إلى هذا المكان المرقوم والوقفه الفريدة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ السودان ؟ لقد كانت تلك الوقفة من أعظم الفترات التي تمر مشيلاتها بتاريخ الأفراد فتؤثر في تاريخ البلاد وقد تؤثر في تاريخ العالم . إنه اليوم بين أصحابه أملا ساميا ونور هدى لا يدانيه نور « فكل شيء سيكون في القريب العاجل جديداً عجيباً مبايناً لما كان عليه بالأمس ، ولا سيما حينما يستولى الأنصار على الخرطوم والقاهرة » فأى أمل وأى رجاء ؟

إن الأسرى والسبايا والغنائم تتدفق على معسكرات المهدي من كل مكان ، والمهدي ينظر إليهم نظرة المارقين على تعاليم الإسلام والخارجين على دعوته . ألم يحكموا بغير ما أنزل الله في كتابه وساروا على غير ما نهج النبي في سنته ؟ « وأولئك هم الكافرون » . ألم يستحلوا المحرمات ويبيعوا المنكرات

ويتكالبوا على الدنيا ومباهجها والشهوات ومفاسدها ؟ انهم قوم لا إيمان لهم .
وانه ليعرض عليهم الاسلام والإيمان بدعوته ، فمن قبلها دخل في عداد أنصاره
وأحبابه ، ومن أبأها وحارب المهدي فوقع في أسره وأسر قواده ، كان سبي
حرب دينية ، ماله ونساؤه وإماؤه حلٌّ للمهاجرين والأنصار والأحباب
والإخوان . هذا هو التعليل الذي يمكن به فهم تعدد أزواج المهدي وكثرتهم .
فقد كنَّ جميعاً غير الشرعيات منهنَّ وهنَّ أربعة ، سبيات حرب دينية ودعوة
إسلامية ، دخلنَّ جهاداً في عداد الإماء والسراري نخضعن في معاملتهن لما
خضعت إليه مثيلتهنَّ في الحروب الدينية . أغبار على المهدي في ذلك
التعدد ؟

الأسرى خلق كثير ممن عارضوا المهدي وكذبوه ورموه بالترهات . فهذا
سلاطين بك (باشا) مدير دارفور أصبح بعد إسلامه عبد القادر صلاح الدين ،
يجلس أمام المهدي تحت تلك الدوحة واضعاً يده في يده ليبياعه بيعة الأنصار
ويعاهده على الجهاد معه في « شأن الله ورسوله » والذود عنه بالروح والحسام .
ومن غير سلاطين وحكام الأقاليم والمديريات التي استسلمت خلق كثير من
الأجانب والوطنيين مصريين وسودانيين ، وقعوا جميعاً في الأسر ودخلوا في
الاسلام وأصبحوا من المجاهدين في جيش الإمام .

وفي الأسرى الأب بونومي ، والأب لويجي ، والأب أورقالدر وراهبات

إرسالية جبال النوبة ، سيقوا الى المهدي في الأبيّض فأوصى بهم خيراً كما
أوصت بهم تعاليم الاسلام ، وصحبوه في زحفه على الخرطوم ونزلوا فيمن نزل
معه بالرّهد . إن المهدي في جلسته تلك تحت الدوحة الفينانة يبعث عصر
يوم إلى الأب أورفالدر ليحدثه فيما ورد في الكتاب المقدس من آيات
وعلامات وحكم بالغات ، والأب الكاثوليكي المبشر يعجب في قرارة نفسه
بعلم المهدي وسعة اطلاعه . وتنازعه في طوايا قلبه القصيّة نوازع الثورة والتمرد
والحق والكراهية على ذلك « السحر الذي غمره به المهدي ، والرفق الذي
أبداه له ، والقداسة المشّعة من ذلك الوجه الباسم أمامه » . وسرت في الأب
هزة فزع أثارت فيه خيالات أقاصيص الاستشهاد التي تعرّض لها رجال الدين
وأبطال الكنيسة في مختلف حقب التاريخ ، وحسب أن ساعة الاستشهاد
قد دنت ، فلن يتوانى في الإقدام عليها قريراً ناعم البال ، وارتقب أن يطلب
المهدي منه كما طلب من غيره من الأجانب المسيحيين غير رجال الدين منهم
الدخول في الاسلام . ولكن المهدي حدّثه عما فرضه الاسلام من رعاية
القسيسين والرهبان وما أحاطهم به من حماية وترفق واهتمام ، حتى لكأنه
استشف ما جال بخاطر الأب القس ، فأدخل على نفسه السكينة والاطمئنان .
وأوكل بهم من أحبائه الأقربين من يرعى شؤون الآباء المبشرين ويسهر
على المحافظة عليهم . ان الأنصار ليزكرون والآباء الرهبان يذكرون أن

راهبات إرسالية جبال النوبة قد وضعن في رعاية أحد الأمراء من قواد الجيش فحفظن بين نسائه ، ولكنهنّ ذقن المضاضة وعرفن الاذلال وقسوة المعاملة، فانفلتت إحداهنّ يوماً الى دار المهدي وشكت إليه أمرها وأرته آثار الضرب في قدميها ، فأخذ دهشاً واعتذر أسفاً وأسكن طائرهما ، وأفهمها أنه لم يأمر بغير رحمتهم وحسن معاملتهم وجميل رعايتهم . ثم جىء بهن في اليوم التالي ليعشن بين نسائه وأبنائه ، « ومنذ ذلك اليوم نعمن بالا ، وسعدن حالاً » ..

كل ذلك ليضرب لأصحابه مثلاً جميلاً في حسن معاملة الأسرى والعطف على الأجانب الأغيار عن الاسلام حتى لا يفتكوا بهم ويسوموهم الخسف وسوء العذاب . فعمله وقدرته أفعل في نفوس أحبابه وأنصاره المتلهبين غيرةً وحماساً من كل وعظ وإرشاد ، وكانت كلماته ورغبته السنة المتبعة والقانون السائد .

وأقبل على المهدي فيمن أقبل أستاذه الأول محمد الخير الذي لم ينس لتلميذه القديم صلاحه وعلمه وذكاءه ، والذي كان يذكره دوماً بكل خير ويدعوله بالفلاح ، والذي يوم شهر دعوته وكذبه الناس ورموه بالدجل والشعوذة قال لهم : « إن من لا يكذب على الأسماء لا يكذب على الله ورسوله » يشير بذلك الى حياة شبابه الأول يوم كان يحتطب أو يحرق

الأرض أو يصطاد أسماك النيل ليققات منها ويواصل درسه وتصوفه وعبادته وهو يطلب العلم عنده في العُش . فخرج المهدي لملاقاة أستاذه وبالغ في إكرامه ، ثم أسند إليه « الإمارة على بربر ودنقلا ، وعهد إليه بنشر دعوته في هاتين المقاطعتين ، ومنحه امتيازات كثيرة ، وتنازل له عن بعض الشؤون التي اختص بها وحده ، وأمره بمبايعة الناس نيابة عنه على مقتضى بيعته العامة ، وأذن له باستخراج الأحكام من المذاهب الأربعة » .

ووفد عليه بعد أن زایل الرهد ونزل بشات ، شيخه محمد شريف نور الدائم مسلماً طائعاً مستغفراً ، فنسى له قديم ما نشب بينهما من خلاف ، وذكر له حقه عليه واستقبله أجمل استقبال ، وأمر بذب النياق احتفالاً بمقدمه وبقى في صحبته مكرماً معزّزاً غير مهان أو مُساء الى أن مات المهدي .
لقد اكتمل للمهدي من أسباب القوة كل شيء . جيش جرّار ، وأنصار أغيار ، ودعوة ملأت الآفاق ، ووفود تقبل عليه من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، وجنود يتشوقون الى الموت والاستشهاد . فإلى أين إذن ؟ الى الخرطوم ، الى غردون .

الخراطوم والهة شكلى بعد أن ترامت إليها أنباء الهزائم المتوالية التي
 حاقت بجيوش الحكومة في الأبيّض وشيكان ، وعويل النائمات النادبات
 يرتفع من كل دار بعد أن أدخل الموت الفجيعة والحزن في قلوب من فقدوا
 الأزواج والأبناء والآباء . والعاصمة في هذا الشكل العميق يهزها فرع جيش
 المهدي الزاحف عليها ، ومتطائر الاشاعات التي بلبت الخواطر والألباب
 أحقاً ما ترامى إلى الأسماع بأن الحكومة المصرية بعد كارثة هيكس باشا
 قررت إخلاء السودان ؟ أتفعل مصر ذلك راضية وعن طيب خاطر فتقطع
 أوصال امبراطورية وادي النيل العظيمة التي شملت لأول مرة في تاريخ الوجود
 ضمن ما شملته ، وادي النيل من مصبه إلى منبعه في خط الاستواء البعيد ؟
 فتحققت بذلك وحدة الوادي كاملة ، وأفلحت مصر في بدء تاريخها الحديث
 فيما لم يفلح في تحقيقه الفراعنة الأقدمون ، والفرس الغازون ، واليونان
 المتمصرون ، والرومان المحتلون ، والعرب المندمجون ، فتمثلت بذلك حكمة

الخالق أروع تمثيل ؟ أنتجهم مصر لماضيها المجيد وتتنكر لمستقبلها القريب
البعيد ، وتزهد مختارة فيما بذلت من جهود ، وصرفت من أموال ، وضحت
من مهج وأرواح ؟ أأصاب ساستها يومذاك خبل الغفلة أم حاق بهم مس
من الضعف والوهن والاستسلام شديد ؟

وتطأيرت إشاعات أخرى الى الخرطوم فعلم أهل العاصمة بطلائع ليل ،
أن الأنباء التي حملها البرق صحيحة وأن وزارة شريف باشا معارضة في الإخلاء .
فماجت العاصمة على ما بها من ثكل وضرر تحمل المشاعيل كأنما تنير بها ليل
الباطل والأراجيف ، « واحتشد الناس حول سراى الحكمدارية يهتفون :
« ليحييا شريف باشا » . أيعيد التاريخ نفسه فيتظاهر أهل العاصمة مرتين
للاخلاء أولاهما في سنة ١٨٨٤ و ثانيتهما في سنة ١٩٢٤ ؟ عجيب أمر هذا
التوافق الزمني في تاريخ السودان !!

ان حكومة جلادستون تتبع حيال الحكومة المصرية سياسة
« النصائح » ، أفقرها على ذلك شريف باشا ويرضى نزولا على تلك الارشادات
والنصائح أن يخلي السودان ؟ لم يرض شريف باشا تلبية ما طلب منه ،
ولكن اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلترا يرى « أنه من الواجب ما دام
الاحتلال البريطاني المؤقت قائما في مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة
من ضرورة اتباع النصائح التي ترى إسداءها للخديو في المسائل الهامة التي

تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسؤولية للمقااة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى أن تصرّ على اتباع السياسة التي تراها .

ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة . وان حكومة جلالة الملكة لواقعة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين - سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة - من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التي قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » .

رفض شريف باشا الوطني اتباع تلك النصائح وإخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية من ربوعه وإقامة حكام من أهله على أقاليمه المختلفة ، ليحاربوا بعضهم بعضاً ويعودوا القهقري إلى عهد التقاتل والصراع . فوقف من تاريخ وادى النيل وقفة مشهودة له في صحائف تاريخه ، قرر فيها مبدأ عاماً لن يحيد عنه ساسة وادى النيل الخللّص الشرفاء قيد أئمة ، فوضع لهم في قولته تلك بعد استقالته « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » برنامج سياسة مصر المخلصين الشرفاء حيال السودان ، وبرنامج سياسة السودان المخلصين الشرفاء حيال مصر ، وبرنامج يقبله آخر الأمر - طال الأمد أم قصر - الساسة غير المصريين وغير السودانيين الذين يريدون أن يبدّلوا خلق

الله وصنعه، ومقاومة الطبيعة السرمدية وقانونها. ولن تجد لسنة الله ولن تجد لقوانينه تبديلا. لقد ركز شريف في كلماته الست تلك، برنامج الماضي والحاضر والمستقبل لوادي النيل.

وقبل نوبار بعد شريف تشكيل الوزارة في ١٠ يناير سنة ١٨٨٤، كما قبل إخلاء السودان ونزل عند إرادة تلك النصائح السديدة. أليست حكومة جلالة الملكة لواقعة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من هم على استعداد لتنفيذ النصيح السديد؟ ولكن نوبار ما شأنه وشأن وادي النيل؟ لا يحس إحساس أبنائه ولا يهيم بما يهيمون به ولا يتطلع إلى ما يتطلعون إليه في طوايا المستقبل السحيق. إنه غريب عن النيل دماً ومعتقداً وتاريخاً ومصلحة وأملاً. وويل للقريب من الغريب.

والخرطوم مأجبة متظاهرة مثلما تظاهرت منذ ليال قلائل، ولكن أهلها يهتفون اليوم بنقيض هتافهم الأول يهزم حزن وأى حزن عميق.

وارتقب رئيس الوزارة الجديد ينتظر وحى النصيح للموافقة على تعيين من يقوم بمهمة الإخلاء « وإرجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار إلى مصر، وذلك مع حفظ النظام في البلاد باعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصرى » فيأله من تناقض غريب. أيحفظ النظام بغير جند؟ وكيف تحل معضلة تنصيب سلاطين من سلالة الملوك الأقدمين بعد أن دُخِلَ البلاد.

الأصقاع ودانت له سلالة الملوك الذاهبين ؟ ثم أية سلطة بقيت لسلالة الملوك الأولين بعد السلطة التي أحرزها المهدي في البلاد فملك زمام أمورها . وأين الشخصية الباهرة اللامعة التي تجمع حولها أولئك الملوك لتقف موقف الند المنافس للمهدي ؟ انه لضرب من المستحيل .

لم تكن مسألة السودان محل اهتمام مصر وحدها في ذلك الحين بل إنها شغلت عقول الناس في إنجلترا ، فأثارها الصحف الإنكليزية بعد كارثة هيكس وتناولتها بشدة وعنف . ثم أجمعت رأيها على ترشيح الجنرال غوردون للذهاب إلى الخرطوم والقيام بمهمة الإخلاء لسابق معرفته بالبلاد . وعددت مآثره الماضية في القرم ، وفي الصين ، وفي السودان ، وأشادت بذكر مناقبه ، ونوهت بما بذله من مجهود عظيم في مكافحة تجارة الرقيق ، وما قام به من أعمال يوم أصبح حاكما عاما للسودان . ونزلت وزارة الخارجية البريطانية على هذه الرغبة ، واتصلت بغوردون فوافق على الذهاب إلى السودان ، وأصدر مجلس الوزراء البريطاني في ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ بلاغا رسميا « عهد فيه بمهمة الجلاء عن السودان إلى الجنرال غوردون ، وأنه سيكون ممثلا للحكومة الإنكليزية في الخرطوم » ، فلما وصل القاهرة يصحبه الكولونل ستیورات الذي كان في السودان منذ عام ليكتب تقريراً عن أحواله رفعه إلى الحكومة البريطانية ، طلب السير إيفلن بيرنج (لورد كرومر) من الخديو تعيين غوردون حاكما عاما

للسودان . ومنذ ذلك اليوم « فُوضت الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان إلى موظف واحد يلقب (بحاكم عام السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى، بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى، يصدر برضاء الحكومة البريطانية^(١) » .

والتقى غوردون بنوبار ، ووقف الزمن بينهما يعيد توافقه العجيب . فنوبار هو الذى التقى به فى ذلك المؤتمر الذى عقد فى اسطنبول لبحث شؤون الملاحة فى نهر الدانوب ، وكان ممثلاً للحكومة البريطانية فيه . أشاء القدر أن تكون حياة غوردون متصلة بشؤون الأنهار ، ومكافحة الأتھار ، ودائرة الاستعباد والاسترقاق ؟ فعرض عليه نوبار العمل فى السودان للقضاء على تجارة الرقيق فى المديریات الاستوائية فى سنة ١٨٧٤ فقبل ، وناهضها ثلاث سنوات بقى بعدها ثلاثاً أخرى حاكماً عاماً يدير شؤون البلاد كلها ، ولكن ذلك برغبة خديو مصر لا بناء على طلب حكومة جلالة الملكة . وها هو اليوم يلتقى به مرة أخرى ، ليرجع إلى تلك الأرجاء التى دفعه إليها أول الأمر ، حاكماً عاماً بموافقة خديو مصر، بناء على طلب حكومة جلالة الملكة .

إنه لتوافق عكسى عجيب . لقد قفل غوردون بعد ست سنين من مقابلة

(١) المادة الثالثة من اتفاقية سنة ١٨٩٩ .

نوبار الأولى بعيد الصيت نابه الذكر ، أما اليوم فلا عودة ولا رجوع ، بل
ذكر في ذمة التاريخ

وضع غوردون قبل أن يبارح القاهرة تقريراً عن مهمته ومقترحاته ،
متمشية كلها مع السياسة التي عهد إليه بتنفيذها قبل مزايته لندن ، وواقفه
الكولونل ستيوارت ووافقت حكومة جلالة الملكة عليه وأيده جلادستون
في مجلس العموم ، وبذلك وضعت أسس السياسة البريطانية حيال السودان
وترك غوردون القاهرة ميمما الجنوب فلما بلغ كوروسكو بعث بكتاب
إلى مدير بربر ليرسله بدوره إلى المهدي مع رسول خاص وهدية خاصة ، هي
جبة جوخ وقفطان حرير أحمران ومركوب أحمر وشال من الكشمير ، لاتعدو
أن تكون كالهدايا التي تمنح إلى مشايخ القبائل ، وذكر له في كتابه « أن
حكومة جلالة الملكة قد عينته والياً عاماً على السودان ، واعترفت باستقلال
البلاد وفصلها عن الحكومة الخديوية فصلاً نهائياً ، كما اعترفت لعظمة السيد
محمد أحمد بالسيادة على السودان الغربي وتلقيبه بسلطان السودان الغربي .
وطلب من سلطان الغرب مساعدته على إخماد نيران الثورة في السودان
الشرقي ، وفتح طريق سواكن لسفر الحجاج ، وأكده أنه لا يقصد من
وراء كل ما ذكره إليه ، سوى حقن دماء المسلمين » .

وصل غوردون إلى بربر ومن حولها الثورة تجيش خفاء وتتأهب للوثوب فجأة . فوقف خطيباً في العمد والأعيان يعلن طلوع عهده الجديد على البلاد ، وفاتته مداورة السياسى الحاذق الذى يداخل الأمور ويخارجها ، فصرح بما لا يجب التصريح به ، فأجج النار وزاد اللهب اشتعالا . ثم اختار اثني عشر رجلا ليشكلوا مجلس قضاء يجلس مرتين فى الأسبوع ، وأمر المدير ألا ينفذ أو يتصرف فى شىء ما إلا بعد موافقة ذلك المجلس . أتلك نواة المحاكم القروية ومجالس الشورى والمديريات فى البلاد ؟

فما ذا ينتظر المترددون الذين كانوا يأملون فى غوث الحكومة بعد ذلك البيان الصريح ، وبعد قرار الحكومة على ترك البلاد وشأنها . إنهم إن بقوا حيث هم تخطفتهم رماح أنصار المهدي وسيوفهم ، وإن انضموا إليه قبل أن تسقط البلاد فى قبضته فقد نجوا من الختوف والدمار . فأضمر الحاضرون من السراة والأعيان اتباع أيسر السبل وأسلمها إلى بيعة المهدي والانضمام إليه ، فراراً بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم من بطش جيوشه المكتسحة ، التى لا تقف أمامها فى ميادين القتال جيوش ، إلا ريثما تتوسد الثرى أو تلوذ بأكناف الفرار ...

وبلغ غوردون الخرطوم فانطلقت المدافع تحيى الحكمدار الجديد القديم .

وتقدّم إليه جمع من قناصل الدول والموظفين والأعيان فقدم إليهم بدوره سياسته واضحة صريحة ، وأعلن أخرى بعد قراءة فرمان توليته ما انطوت عليه غاياته ومقاصده فقال : « إن السودان قد فصل عن مصر فصلاً تاماً ، وقد جئتم حاكماً مفوضاً عاماً عليه ، فجعلت محمد أحمد سلطاناً على كردفان ، وألغيت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وأغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ ، وعن ضرائب سنتين في المستقبل . وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه » .

ثم أمر فجمعت سجلات الضرائب على الأتبان في ساحة عامة ووضعت فوقها السياط وآلات التعذيب وأضربت فيها النيران . وطاف بالسجون فأطلق سراح الجميع ما عدا القتلة ، ومضى فتفقد الحصون وخطوط القتال التي أقامها عبد القادر باشا حلمي حول الخرطوم فسر منها سروراً بالغاً ، ونظم بعد ذلك القوات وأخذ في تنفيذ سياسة الإخلاء ، وانتظر يرتقب ما تأتي به الأيام .

كان شعار غوردون في سياسته الجديدة كما يقول مؤرخه بولجر « السودان للسودانيين ^(١) » ، فأخذ في توليتهم المناصب الكبرى في الإدارة والجيش ، وعين فيمن عينهم لتلك المناصب ، الشيخ عوض الكريم أبا سن مديراً للخرطوم ،

(١) راجع كتاب بولجر « حياة الجنرال غوردون » ص ٢٩٥ طبعة والتر سكوت .

وفرّج باشا الزيني ، والسعيد باشا الجميعاني ، وحسين باشا ابراهيم الشلالى قواداً
فى الجيش ، وقد قتل الأخيران بأمر من غوردون بعد أن تواطأ مع أنصار
المهدى فى واقعة الشرق (الخرطوم بحرى) ، وأنشأ مجلساً استشارياً فى يوم
وصوله إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ ، وهو أول مجلس استشارى
للبلاذ ، ثم ألغاه بعد واقعة الشرق .

دفعّت السياسة التى أعلنها غوردون الناس إلى التفكير فى مصيرهم ،
فالمهذى قد أصبح فعلاً المالك المتسيطر على البلاذ ، ولن تستطيع أية قوة من
الخارج أن تقضى على نفوذه الذى تغلغل فى كل قلب وفى كل مكان . فأخذوا
يهاجرون إليه أو إلى أمرائه أو يترأسلون معه سرّاً وجهراً . فلم تجد سياسة
« السودان للسودانيين » نفعا . والمهذى لن يحتفل بلقب ، ولن يغترّ بعرض
من عروض الحكومة التى جرد سيفه لقتالها ، والتى هزم جيوشها جيشاً
جيشاً ...

وهل تسكن خواطر الناس أو تغريهم إباحة تجارة الرقيق وإعادتها سيرتها
الأولى ؟ عجيب هذا الموقف ! ألم يُعين غوردون من قبل حاكماً عاماً للمناطق
الاستوائية لمكافحة تلك التجارة البشرية البغيضة ؟ وهل يعود نفع إباحتها
من جديد إلا على فقر قليل من التجار لا يهمهم من أمر البلاذ ومستقبلها
شيئاً ، بل جل همهم أن يثروا وأن تبسم لهم الحياة فينعموا بمباهجها ولذاتها ؟

أيسلم غوردون فكرة كان يشن عليها بالأمس حرباً عواناً ؟ إن العقل ليحار
في هذا التناقض الفريد .

ارتفعت انجلترا كلها لهذا النبأ الأخير ، ونشطت جمعية مكافحة الرقيق
وطلبت المعارضة في مجلس العموم البريطاني بياناً من الوزارة عن هذا الرأي
الذي أعلنه غوردون في خطبه ومنشوراته في السودان ، ولكن الوزارة وأصدقاء
غوردون وقفوا بجانبه ودافعوا عن سياسته ، وردوها إلى مقتضيات الموقف ،
والنزول على حكم الظروف المحلية ، وما تتطلبه من حلول سريعة تتفق وطبيعتها ،
فمرت العاصفة بسلام .

انتظر غوردون رد المهدي على رسالته وهديته ، وقد أمر وهو في
كوروسكو « أن يقابل سفراء سلطان الغرب حين حضورهم باستقبال ودي
حافل كما يقابل عظماء الملوك والأمراء ، ويجب أن تزين لهم المدينة ثلاثة أيام »
أما المهدي فقد جمع حين تسلم كتاب الحكماء وهديته أمراء وأهل مشورته
وقرأ عليهم الكتاب ورده ، ثم استفسر عن رجلين من أنصاره وأحابه يبيعان
حياتهما من الله تعالى ، ويذهبان بكتابه وهديته إلى غوردون « ولا يغمدان
سيفيهما حتى يدخل بهما عليه ، ويسلماه الكتاب ، ولا يذوقان طعاماً ولا شراباً ،
وينصحان له ويعظانه بالإفلاع عن خطته ، ويملآن أذنيه وعيداً وقلبه رعباً ،
فاذا قتلها فإني كفيل لهما بأن الله يلحقهما بالشهداء والصالحين وحسن أولئك

رفيقاً» فبرز له خلق كثير وهم يبكون شوقاً الى الشهادة ، ثم انضم إليهم غيرهم وغيرهم ألوف مؤلفة ، فاقترع على رجلين ومضيا حتى بلغا مدينة الخرطوم ووقفا على أسوارها وسيفاهما مسلولان ، فلما دنيا من باب غوردون اعترضهما الحرس وطلب منهما أن يغمدا سيفيهما ويسلما أسلحتهما فأبيا ، وألح عليهما فقلبا : «إما الرجوع من حيث جئنا وإما الموت» . فأبلغ غوردون ما قالاه ، فأمر بإدخالهما كما هما ، فاستقبلهما واقفاً متقلداً سيفه ومسدسه . فسلماه الكتاب وهديته من ثياب الدراويش والأنصار ، هي الجبة المرقعة والسروال ومنطقة خوص النخل وحذاء وعمامة وطاقيه وسبحة ، ثم أخذوا في نصحه ودعوته الى الإسلام ، فلم يعرفها بالاً . وأمر فقرأ عليه كتاب المهدي « الى عزيز بريطانيا والتخيوية غوردون باشا . قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه ، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ، وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان ، فأقول والأمر لله ، اني قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ، ويعملوا بما يصلحهم في آخرتهم ، وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا بجزيرة ابا بدعايته الى الحق ، وبأن مهديتي من الله ورسوله .

ولست في ذلك بمُتَحَيِّلٍ ولا بمريد ملسكاً ، ولا جاهاً ، ولا مالاً وإنما

أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم
عن الحق المبين ، لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو
الذي صدّهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفاني وتركوا
الباقى ، واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ،
ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يُغن عنهم ذلك شيئاً ، وتندّموا على قدر الذى
تمتعوا به ، فأيدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلائهم الى الله تعالى ، وليتركوا
العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ،
ولأعرّفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضاء الله ويكون له
نصيب فى الآخرة . وقد قال المسيح عليه السلام : « يا معشر الحواريين ابنوا
على موج البحر داراً تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً . ومن ظن أنه يخوض
البحر من غير بلل فهو مغرور » ، فكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها
وجاهاها ويكون له فى الآخرة شأن . فأنب إلى الله الباقى واخضع لجلاله ،
واطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هذه الدنيا داراً حتى تسعى لملكها
وعزها

وغاية ما نسعى إليه هو أن نجد لهذه الأمة ما اندرس من معالم دينها ،
فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت
الآخرة ، نتخذك ولياً وتكون من إخواننا ، فتكون المودة المطلوبة عند الله

ورسوله ، وتكون ممن امثّل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى :
« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتّقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات
النعيم ، ولو أنهم أقاموا التّوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا
من فوقهم ومن تحت أرجلهم » الآية . فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا
وبينك ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتّوراة والانجيل ، وتكون قد اتبعت
باتباع نبينا محمد ، عيسى وموسى وجميع الرسل والنبين ، وحزت الخير
الأبدى واعلم أنّي المهدي المنتظر خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فلا حاجة لي بالسلطنة ، ولا بملك كردفان ولا غيرها ، ولا في مال
الدنيا ولا زخرفها . وإنما أنا عبد لله دالّ الى الله والى ما عنده . فمن كان
سعيداً أجبني واتبعني ، ومن كان شقيّاً أعرض عن دالّتي فأزّله الله عن
موضعه ، وأذّله وعذبه عذاب الأبد

وأما فتح طريق الحج فإنه خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الاسلامي
مع أنك لا تؤمن بحرف مما جاء في هذا الدين . وإنك لمن معشر عرفوا
بعدائه وكرهه . فان كنت ممن يشفق على المسلمين ، فأولى بك أن تشفق على
نفسك وتخلصها من سخط خالقها ، وتحملها على اتباع الدين الحق
أما هديتك فلدينا مثلها كثير ، ولكن أعرضنا عنها طلباً لما عند الله
من حسن الثواب . وإني أقول لك كما قال سليمان عليه السلام لبليّيس وقومها ،

« أتمدوني بمال ! فما آتاني الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون .
ارجع إليهم فلنأتينهم بخنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أدلة وهم
صاغرون » .

واعلم أنك إن أتيتنا مسلما نرييك ونُريكَ من النور ما يطمئن به قلبك،
ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاً
للمسلمين، وليناك كما فعلنا ذلك مع غيرك من الحكام السابقين »
وترجم الخطاب فانفجر غضب غوردون ، وألقى بهديته أرضاً وحرقاً .
ثم أوعز فكتب الى المهدي « من غوردون باشا والى السودان الى محمد احمد
المتمهدي » كتاباً كله قدح وثلب ، ووعيد وتهديد .

« وها أنا مستعد لقدمك ومعى رجال أقطع بهم أنفاسك . والعاقل
من تدبر والسلام » . وجمع غوردون العلماء الرسميين فأفتوا ببطلان دعوة
المهدي ، وحكموا بتكذيبه . ودفع والى السودان كتابه والفتوى الى رسولى
المهدي .

ثم بدأ بعد ذلك فى تنظيم قواته ، وتعزيز استحكاماته وقلاعته ، وتحصين
السفن التجارية النيلية . وأخذ الصوفى يتأهب للقاء الصوفى ولكن لأى لقاء .
حارب غوردون متصوفاً فى الصين ، فأبلى فى مكافحته بلاءً حسناً وانتصر
عليه ، حتى لقب « بغوردون الصينى » إعظماً لقدره وبسالته . ولكنه اليوم

امام صوفى من طراز آخر « يحب المسكنة والمساكين ويكره الفخر وتيه
السلطين » . لم يبن قصوراً وأبراجاً كما بناها « هونج تسو شونج » مهدي
الصين ولم يدع أنه « امبراطور السلام الأكبر » أو « الملك السماوى »
ولكنه المهدي المنتظر ، وغوردون نفسه صوفى متبتل كالمهدي ، لا يفارقه
إنجيله ولا ينقطع تفكيره فى الله ، ولا يكف عن التأمل فيما ورد فى الكتاب
المقدس . ان شقيقته وأصدقاءه ورجال الدين ومن اتصلوا جميعاً به ، يعلمون فيه
هذه الناحية الصوفية العميقة ، التى ملكت عليه مشاعره وتأملاته .

تبين لغوردون وسط هذه الغمرة أن الجلاء عسير ، وأنه إذا ترك السودان
لأهله فإنهم سيلتفون حول المهدي ويعظم الخطر الذى أغفله الساسة فى حكمهم
على الموقف كله من وراء مكاتبهم ، وبين سطور أوراقهم وتقاريرهم . فبعث
يطلب من مصر تأكيداً لسياسته السالفة .

١ — « ارسال الزبير باشا ، وجعله حاكماً عاماً على السودان .

٢ — أن يمنح الحرية المطلقة فى إدارة الشؤون الملكية والعسكرية ،

فيولى من يشاء ويعزل من يشاء ، وينظم المالية والترسانة
والضرائب ودخل الحكومة وخرجها .

- ٣ — أن يعطى السلطة لمنح رتب عسكرية وملكية الى رتبة أميرالاي،
على أن يطلب عرائضها من خديو مصر .
- ٤ — أن تجعل له الحكومة المصرية إعانة سنوية قدرها مليونان
ونصف مليون جنيه ، لمدة سنتين .
- ٥ — أن يُترك جميع ما للحكومة في السودان من الأسلحة والذخائر
والوابورات .
- ٦ — أن تساعد القوات الانجليزية على رفع الحصار عن الخرطوم
وسنار وسواكن .
- ٧ — أن يشمل السودان جميع بلاد سواكن والقضارف وكسلا
والقلابات وسنار والخرطوم وبربر ودنقلا حتى الخندق .
- أما مصوع وسنهيت ففتصلان عن السودان . وأما بحر
الغزال وخط الاستواء — وهما جنوبي السودان — فتخليان .
- ٨ — أن يُنشأ جمرک في سواكن ويضم دخله الى مالية السودان ، أما
في الخندق — في شمال السودان — فلا يكون جمرک ، بل تعفى
الضرائب الصادرة والواردة من الرسوم .
- ٩ — أن تبقى تجارة الرقيق ممنوعة بمقتضى الاتفاق الذى أبرمته إنجلترا
مع مصر » .

وتدور عجلة الأيام مسرعة ، فينسب الزمن في سنة ١٨٩٩ ، ثم ينسب
في سنة ١٩٢٤ ، ثم يمتد في سنة ١٩٣٦ ، ثم يمتد أخرى في منتصف مايو
سنة ١٩٤٤ فإذا اتفاقية ، وأحداث ، ومعاهدة ، ومجلس استشاري ، لا تخرج
كلها في مواعيقها ، وأسسها ، وتفصيلها ، ونظامها ، عما طلبه غوردون منذ
ستين عاما .

ويُرفض طلب غوردون ، ويعاودوا الإلحاح في إرسال الزبير الى الخرطوم
ويعينه غوردون نائبا له ، ويبرقه بذلك والزبير في مصر ، وتذهب تلك المطالب
كلها أدراج الرياح . ويطلب مرة ومرة مددا فلا يجاب له طلب كأنَّ الرُّفض
سياسة موضوعة ، وقصدا مقصودا .

وتزحف جيوش المهدي على الخرطوم من الشرق ، ويستولي محمد الخير
أستاذ المهدي السابق على بربر ، فيقطع خط الرجعة ويسد طريق الاتصال .
وترتفع نيران الثورة في دنقلا ، ويمتد لظاها الى سنار ، وتقترب الجيوش
الزاحفة مطبقة على العاصمة من كل صوب ، وتشتد الضائقة بالمحاصرين ،
ويتسرَّب الفارون خلسة الى المهدي أو الى أمرائه .

ويكتب غوردون في منتصف مارس إلى شقيقته يطمئنها « بأن كل شيء
على ما يرام ، ونستطيع باذن الله أن نبقى عدة شهور » ثم يدون في مذكراته
« لقد وضعت نفسي في مأزق حرجة فعلام إذن كل هذا ؟ إني مبجل الخاطر ،

وأعتقد أن الطموح هو الذى طوّح بي إلى هنا ، إلى هذا الدمار . إن الثواب لم يجعل لتحقيق أغراض الحياة الفانية . فان تبدد كل شىء هنا ، فانه تعالى — ولا كفران به — هو الحق ، وإنه لمنفذ لحكمته الإلهية الكبرى » .

وتنشر الحكومة البريطانية فى أوائل مايو كتابا أزرق فيه تلغراف من غوردون إلى سير أفيلن بيرنج يقول له فيه : « لقد أوضحتم نيتكم فى عدم إرسال أى مدد إلى هنا أو إلى بربر ، ومنعتم عنى إرسال الزير ، وإنى أعد نفسى حراً فى أن أتصرف وفق الظروف . وسأقاوم هنا أطول مدة أستطيعها . فاذا كان فى حولى إخماد الفتنة فعلت ذلك ، وإن لم أستطعه ، فسأرتد إلى خط الاستواء . وإنى أضع على عاتقكم عار ترككم حاميات سنار وكسلا وبربر ودقلا الذى لا يحصى . وكونوا واثقين من أنكم فى النهاية سترغمون على القضاء على المهدي بصعوبات كبيرة ، إذا أردتم المحافظة على الأمن والسلام والاطمئنان فى مصر » .

ولكن الشعب البريطانى ، ملكته وصحافته ونوابه لن يتركوا غوردون ، غوردون بطل الصين العظيم فى مآزقه الحرجة . فعقدت الاجتماعات ، وكتبت المقالات ، وافتتحت التبرعات ، وانتهالت الأسئلة فى البرلمان عن غوردون ومن أجل إنقاذ غوردون . وأصرّت الحكومة البريطانية فى ردودها على أسئلة

المستفسرين على أنه ليس في خطر داهم ، وإنه كما قال جلادستون « حرق
أن يترك الخرطوم إذا شاء » .. ويكتب غوردون في مذكراته : « إنني لن
أترك هؤلاء الناس بعد الذي عانوه ، ولن أبارح الخرطوم إلا بعد أن أضع
إنسانا هنا مكاني » .

وتسلم سير إيفلن بيرنج في ٢٦ أغسطس برقية من غوردون يقول فيها :
« إني منتظر القوات الإنجليزية لإخلاء الحاميات المصرية . ابغثوا لي بالزير
باشا وامنحوه ثمانية آلاف جنيه في العام . وإني سأسلم السودان إلى السلطان
(تركيا) حينما يصل مائتا ألف جندي تركي . فاذا قتل الثوار المصريين فأتهم
مستولون عن دماءهم . وإني في حاجة إلى ثلاثمائة ألف جنيه لأدفع مرتبات
الجنود ، فإن تفقاتي اليومية ألف وخمسمائة جنيه ... »

واشتد قلق الشعب البريطاني ، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة
إنتقاذ إلى غوردون بقيادة لورد ولسلي ، ولاحق في الوقت نفسه فرصة أخرى
لغوردون فقد أخذت مياه النيل ترتفع وأصبح صالحا للملاحة . فأرسل كولونل
ستيوارت والمستر پاور قنصل انجلترا ومراسل التيمس في الخرطوم ، وقنصل
فرنسا وبعض المهاجرين على الباخرة عباس . واحتقب ستيوارت معه مذكراته
عن الحصار ونداء من غوردون وجهه للدول الأوروبية ، وجزءاً من مذكراته .

ومضت الباخرة حتى ارتطمت بصخرة في النيل بالقرب من بربر، واستدرج السكان ستيوارت ومن معه ففتكوا بهم غدرًا .

كانت الخرطوم في خلال هذه الأحداث التي تموج حولها وبعيداً عنها، تن من ضائقة الجوع وتفزع من شبح الدمار . وغوردون يشجع أهلها، ويقوى من عزائمهم، ويعلق منشوراته في شوارع المدينة يبشر فيها الناس بقرب وصول حملتين من القوات الإنكليزية، إحداها عن طريق كسلا، وأخرها عن طريق دنقلا، وحملة ثالثة جردها سلطان تركيا عن طريق سواكن، ورابعة أعدتها مصر عن طريق كسلا ورفاعة، ووجهتها كلها لخرطوم . فإذا ما خارت عزائم الجند والسكان قليلاً فرّق عليهم وسامه الذي أسماه « نجمة الحصار » ، وجعله طبقات ودرجات . ولما نفذت خزائنه من المال، طبع أوراقاً مالية متعددة القيم والفئات . واشتد الغلاء وارتفعت أثمان الحاجيات وأخفى التجار الحبوب، فشن عليهم حرباً ضروساً . ولكنه وحده يفكر ويدير، ويستعد ويشجع ويرتقب . أنيسه في وحدته ووحشته مذكراته يدون فيها خواطره وهجسات نفسه ، ويمد يده إلى الكتاب المقدس يفتحه من آونة لأخرى ، يستمع إلى نبوءاته ويطل منها على المجهول . ويتنبه في أعماق نفسه وأغوارها البعيدة ، الصوفي المتوكل ، فيأمل في كل شيء ولا يخشى شيئاً . ثم يهرع إلى مذكراته فنسطر فيها : « ما هي نهاية كل هذا ؟ إنها ولا محالة قدر مقدور في سجل

الأزل . إن الخرطوم ستؤخذ عنوة على مرأى من حملة الإنقاذ التي ستأتى بعد فوات الوقت » .

إنها روح الصوفى تنطلق في سبحاتها وتمرق في أكناف المستقبل فتشاهد وتحس بالأحداث قبل وقوعها . ويفكر في المهدى فيكتب : « أشعر دائماً بأنه قدّر علينا أن نلتقى يوماً ما وجهاً لوجه » . أحقاً سيلتقى الصوفيان ؟ متى وأين ؟ وتروعه في هدأة الليل أصوات طيور اللقلق ، فيذكر أنه رآها جموعاً جموعاً في رومانيا ، وأنها مرت سابحة فوق سفينته وهو أمام جزيرة أبابى طريقه إلى الجنوب منذ سنين ماضية ، فانطلقت منها في سكون تلك الليلة القمرء ، صيحات مفرعة مملوءة تهكماً وسخراً . ويذكر أخرى ما ورد عنها في الكتاب المقدس . ولكن مالها تصيح الليلة كالساخر المتهم ؟ أهى دوماً ساخرة متهمكة ؟ وما لهذه الصقور تحوم وتدوم فوق القصر ؟ لقد ورد عنها في الإنجيل أنها ستلتقط عيني من يهزأ بأبيه ويصدف عن طاعة أمه ، وإن صغارها ستأكل عيون أولئك إلعاقين « أترى قدر لها أن تقتلع عيني ؟ إني لأخشى أنتى لم أكن أبر الأبناء » . كانت مذكراته وإنجيله ومنظاره هى كل شىء إليه وسط ذلك اليأس القاتل والواجب الضخم .

وإنه ليجيل طرفه فيمن حوله من الجنود والموظفين والسكان ، فلا يرى

إلا عيوننا وجلة زائغة ، ونظرات حائرة خاطفة ، وخيانة تطل من كل حدقة ،
ورغبة في طوايا النفوس تدفعهم إلى التسرب والانضمام الى المهدي . الجوع
والخوف والانتظار وخيبة الأمل والتعليل المتواصل بالأمانى الكذاب ، قد
امتصت من قلوبهم كل شجاعة وجلد . ويقارن غوردون بين من يحوطون به
وبين أقل أنصارى من أتباع المهدي فيجد فيه « جنديا باسلا يحتمل الظأ
والجوع ، ولا يقيم وزنا للموت كأنه حجر صلد » . أولئك الذين تمنى لو أنه
كان قائدهم المتبوع .

وعرف المهدي من مذكرات ستيوارت التي بعثت إليه الحالة في الخرطوم ،
وما يكتنفها من جوع وخوف ومرض ، فجد السير في زحفه على العاصمة بعد
أن أقض أمراؤه مضجعا ، وروعوا أهلها ، وهاجموها من كل صوب . ولم يبق
في مخازنها ومستودعاتها في يوم ١٠ ديسمبر من الحبوب إلا قدراً قليلاً يكفي
سكانها خمسة عشر يوماً . إن غوردون لتروعه حقاً معضلة التموين . والمهدي
قريب من الخرطوم وحصن أم درمان ، وقواده يشددون النكير على العاصمة
المتداعية الروح المعنوية ، فقرر أن يشدد التضييق عليها حتى تسقط جوعاً
وتنهافت إعياء .

وأي حملة الإنقاذ ؟ إن الجنرال لورد ولسلي يسير بمجيوشه وسفنه جنوباً
سراً متواصلاً حثيثاً . والطريق وعراً طويلاً ، والعقبات متعددة ، ولكن

لورد ولسلى وقواده وجنوده يجدون السير للاتصال بغوردون قبل فوات الوقت،
 قم الاتصال بينهم فى المتمة فى ٤ نوفمبر ، وذكّر غوردون فى كتابه إلى قائد
 الحملة كل شىء . ويشجعه ولسلى وينبئه بأن قواته التى جاءت معه من إنجلترا،
 متعطشة إلى خوض غمار القتال ، ومع ذلك فقد « رأيت فى زمانى سفك دماء
 كثيرة ، وأفضل أن ينتهى النزاع سلمياً ، وذلك بمساحة محمد أحمد فيما مضى
 وجعله سلطاناً مستقلاً على كردفان ، يكون الملك فيها له ولأولاده من بعده ،
 وبتأسيس حكومة وطنية فى الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر
 وحكمه وراثى ، فيملك دقلاً وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى إنجلترا . أما إذا
 أبى محمد أحمد إلا الحرب ، فإن عساكرى سينالون منه مأربهم ، وهم نخبة مختارة
 من الجنود البسلاء »

ويشير ولسلى حماس جنوده البسلاء لأن « إنقاذ غوردون وحاميته
 المحصورة فى الخرطوم منذ زمان طويل ، هو العمل الذى ندبتنا إليه جلالة
 الملكة » . وجد الجنود السير براً وبحراً ، ودارت المعارك بين حملة الإنقاذ
 وجنود المهدي ، وتقدمت إلى الأمام منتصرة تشق طريقها حتى اتصلت سفنها
 فى النيل بسفن غوردون ، تحمل بقية مذكراته وإيماءته الأخيرة بالوداع « إذا
 لم تصل الحملة — ولست أطلب أكثر من مائتى جندي — فى مدى عشرة

أيام فالمدينة قد تسقط . لقد فعلت خير ما يفعل للمحافظة على شرف بلادنا .
وداعا ... غوردون » .

ولكن الحملة تلاقى مقاومة عنيفة فتتباطأ في تقدمها حتى ليكاد يكون
نصرها في كفة القدر ، ومع ذلك فقد شقت طريقها ووصلت في ٢١ يناير
سنة ١٨٨٥ إلى المتمة ، ومصير العاصمة يقترب شيئا فشيئا ، وجناح الفناء يهفو
فوقها ، ويدنو مطبقا للأجهاز عليها .

ويقف غوردون وحيداً منفرداً فوق سطح القصر حينما ينبثق الفجر
ويضيئ النهار ، وحينما تنحدر الشمس إلى المغيب ، يدير منظاره في دائرة
الأفق البعيد ، لعله يرى في انطباق دائرة السماء فوق دائرة الأرض ، نقطة متحركة
إلى الأمام ، قد تكبر فتكبر رويداً رويداً أمام ناظره ، وقد تنجلي أخيراً عن
حملة الإنقاذ . فما أمر الانتظار

ويستولى المهدي على حصن أم درمان ، ورسائله من قبل تصل إلى
غوردون تترى يدعوها إلى التسليم والإسلام ، وغوردون في موقفه يزداد
عناداً وتصميماً واستبسالاً . ويكثر الجوع عن ناجذيه ، ويدفع أمامه الجموع
الضالوية من النساء والأطفال في شوارع الخرطوم ، يطلبون حفنة الذرة بما
يملكون من مال وحلى ونضار ، بعد أن أكلوا كل شيء : الجلود والصمغ
والكلاب . وهذا الشعب الجنود فهزلت أجسامهم ، ووهنت قوتهم ، وهرب

ضعفاء القلوب منهم يلوذون بالمهدى فراراً من الجوع وخوفاً من السيف .
وتطيرت الإشاعات أن المهدى سيهاجم الخرطوم في ٢٥ يناير ، وغوردون
وحده وسط تلك المأساة المطبقة من كل ناحية . إن أعيان العاصمة يريدون
مقابلته فيأذن لأحدهم نائباً عنهم ، فإذا ما مثل بين يديه صاح به : « ماذا
أقول أكثر مما قلت . لقد أخبرت الناس مرات عديدة أن الحملة آتية لا محالة
ولكنها لم تأت . فهم اليوم يعتقدون أنني كذبت عليهم . ولست أستطيع
فعل أكثر مما فعلت . فاذهب واجمع القادرين على القتال في خط النار وقفوا
وقفة بأسلة مشهودة . أما الآن فدعني أدخن هذه اللقائف » . وماذا يصنع
غوردون أكثر مما صنع وحيداً منفرداً يحاصره جيشان : جيش المهدى ،
وجيش الجوع !

وتلمح حدقة المنظار جموعاً غفيرة من جنود المهدى تجتاز النيل وتعسكر
عند شجرة « محوبك » . فأعد غوردون عدته وتأهب للقاء الأخير : أاحتشد
الأنصار أمام أضعف مراكز دفاعه ؟ ومن أين لهم معرفة نقاط الضعف في خطوط
نيرانه ؟ إنه ليبعث الأمل في نفوس الجنود والأعيان ويمنيهم بمجيء الحملة غداً ،
فإن ثبتوا فقد نجوا وتغير كل شيء .

الليلة الأحد ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ . والقمر يلوح ضئيلاً في التاسع من
شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ . فأمر غوردون أن تعزف موسيقى الجيش ،

وتُطلق الأسهم النارية، فلعل الأنعام المترددة، والأنوار المتصاعدة بألوانها الجميلة المتباينة، تدخل الرجاء والقوة في القلوب الضعيفة والنفوس الخائرة. أكانت تلك أنعام الوداع ونذير النهاية؟ يوم واحد وينقضي كل شيء، فإن أسرع الحملة وجدت السير قليلاً واقتحمت طريقها عنوة، فقد تنجو العاصمة من السقوط والدمار، وإن تأخرت فقد قضى الأمر وذهب كل شيء هباء. إنها النهاية المحتومة، إنها ستصل بعد فوات الوقت.

وانتصف الليل وغوردون وحده في القصر المنيف يفكر ويفكر، ويناجي نفسه «إنني لن أنال حياً» فقد وضع موادَّ شديدة الانفجار في أقبية القصر ترتفع فجأة به وبمن فيه وتهبط به ركاباً جاثياً. ولكن نصف القصر «ضرب من الانتحار وانتزاع لما في يد الله. ومن حقه على تمسكاً بعهدته، أن أبقى إذا دعا الأمر، مصفداً في أغلال المهدي أعاني العذاب نزولاً على إرادته تعالى». وعلى كشب منه سفينة يتصاعد بخارها لتحمله جنوباً إلى خط الاستواء إذا اقتحم الدراويش خطوط النار.

وبات أنصار المهدي ليلتهم تلك كشأنهم دائماً، يكبرون وتهجدون ويسبحون انتظاراً لانبثاق الفجر، فلما نشر رداءه فوق الأفق الساكن، صلّوا والتفوا حول المهدي، فرفع يديه إلى السماء وتلا الفاتحة وأصوات الجمع

الحاشد تتلومعه في دوى وهزيم ، وامتشق حسامه ولوح به في الهواء ثلاثاً وكبر ، ثم قال لأنصاره ، هيا إلى الخوطوم .

وتدفق السيل الجارف صوب خندق النيل الأبيض فاقتحمه ، والتفت قوات المهدي الأخرى بحصون الدفاع وخطوطه ، وشقوا سبيلهم إلى العاصمة الساكنة في هداة الفجر ، وسيوفهم ورماحهم تقطر دماً ، ورمصاصهم يدوى دويّاً متواصلاً ، وأصوات تكبيرهم ترتفع فوق ذلك الدوى الصახب . واستيقظ غوردون فرجاً ، فازتدى بذلته العسكرية وأمسك حسامه ومسدسه قبل أن يصل المهاجمون إلى القصر . ووقف الحكمدار لملاقاتهم في نهاية السلم العليا جندياً عظيماً رابط الجأش صامتاً وقوراً ، يجيل عينيه فيمن حوله ، كأنه يستقبل أيام عزه وسطوته ، وفود القادمين لتحيته من أفراد الشعب . وانطلقت من أحد الواقفين صرخة عالية « ملعون ! اليوم يومك » ، وأنفذ حسامه وتعاقبه الآخرون ضرباً وطعنًا .

أحقاً ما زعموا أن المهدي أمر أنصاره أن يأتوه بغوردون حياً ليفتدى به عرابي من الأسر ؟ إن كلمة المهدي قانون نافذ وإرادة لا ترد ، فلو أنه قالها لما اجتراً إنسان أن يخالف ما أمر به المهدي . ومن يدري فقد يكون الزعم من حقاً ، ولكن نشوة النصر اكتسحت في حمياها النفوس المتوثبة فنسيت كل

شيء؟ وجىء برأس غوردون فوق رمح الى المهدي، فالتقى الصوفيان بعد طول
عناء وصراع .

ومضى يوم وأعقبه يوم ، وسمع في ضحى الأربعاء هزيم المدافع شمالي
جزيرة توت ، ولاحت باخرتان فوق إحداها سير شارلس ويلسون وبعض
الضباط والجنود البريطانيين ، وهما تجدان السير لإسعاف غوردون ولكن
بعد فوات الوقت كما تنبأ الصوفي في مذكراته . وتطلع رجال الباخرتين يفتشان
وسط الدخان المنعقد فوق الخرطوم ، عن العلم المصرى يرفرف فوق قصر
الحكمدار فلم يبصروا له أثراً ، وكان ذلك آخر عهده وحده بالتمايل والخفوق ،
فارتدت الباخرتان من حيث جاءتا تحملان النبأ المفجع للورد ولسلى قائد حملة
الانقاذ ، ومدافع حصون الأنصار على ضفتى النيل تطلق عليهما وابلا من تحيات
القنابل والرصاص .

وتناقلت الصحف فى إنجلترا وأوروبا مأساة الخرطوم بالوصف والتعليق
تارة ، وبالغضب والتوعد تارة أخرى ، وارتفعت تلك الموجة التى تطفى من
قلوب الأمم فى محنتها ، ليتشكل زبدها صوراً شتى من صور الإعجاب والتقدير
والمطالبة بالثأر ، فكانت مؤاساة الملكة فكتوريا لشقيقة الصوفى المسيحى
أول رشاش تلك الموجة « كيف أسطر إليك لأعبر عن شعورى ، وكيف
أداوم التفكير فى أخيك العزيز النبيل البطل ، الذى خدم بلاده وملكته

بإخلاص و بطولة وتضحية، كانت مثلاً رائعاً للعالم بأسره فهوى صريعا دون
أن تمتد إليه يد الإنقاذ « ولم تنس الصحف البريطانية أن تشيد بذكر بطلها
الشهيد القوي ، وتسابق المتبرعون سخاء وبذلا لتخليد مجده ، ولم تنس أيضاً
أن تطالب بثأره « من الهمج المتوحشين » .

واتجهت أنظار العالم كله الى تلك العاصمة النائبة ، والى ذلك الإمام
الزاهد الذى أيدته العناية أيما تأييد . وهاجر المتحمسون من البلاد الاسلامية،
من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب وأفغانستان الى المهدي مرة أخرى فى
أم درمان، مثاماً هاجروا إليه فى الأبيّض عقب واقعة شيكان . أفيقف السلطان
عبد الحميد خليفة المسلمين من هذا الداعية موقف عدم المبالاة والاكثرات ؟
إنه إن وقف تلك الوقفة مكن له فى القوة وامتداد الصيت ، فأصدر منشوراً
كذب فيه دعوى المهدي ، وتابعه الأزهر فأفتى بتكذيبه ، وسار خلف المنشور
والفتوى مجلس النظار، فأصدر بلاغاً رسمياً عزّز الرايين وكذب فيه الدعوة
والداعى البعيد .

والمهدي أ منع من أن تناله تلك التكذيبات ، أو ترزع ايمان أحبابه به ،
وتقدير العالم الاسلامى له . أليس هو اليوم بعد سقوط الخرطوم صاحب الكلمة
العليا فى جنوبى النيل والإمام الذى لا إمام سواه ؟

٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ

٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ م

تألق بعد سقوط الخرطوم ومقتل غوردون وارتداد حملة الانقاذ ، نجم
المهدى وطار صيته كل مطار، ودانت له البلاد إلا قليلا، فأصبح السيد المطاع
والأمر المتبع في السودان . فأخذ يستقر بجيوشه وأنصاره على ضفة النيل
الغربية عند حصن أم درمان ، فزاد في تلك الرقعة وجعلها عاصمة البلاد .
وأخذ في الإنشاء والتعمير والتدبير، فبنى جامعاً ومصنعاً للذخيرة ، وسكّ النقود
بأمره واسمه ، وكثيراً غير ذلك من المنشآت التي تقتضيها ضرورات الادارة،
وشؤون الحكم ، وتوطيد أركان المهدية، ونشر دعوتها في خارج السودان .
وحفزته آماله الجسام في نشر دعوته ففكر في فتح مصر ، وغزو الشام ،
وإخضاع الحجاز، والاستيلاء على تركيا . فكتب منشوراً عاماً إلى أهل مصر،
حكماها وأعيانها وكافتها، يخبرهم بما عقد العزم عليه . ألم يذكر سلاطين أنه كان
يريد أسر غوردون حياً ليفتدي به عرابي ويخرجه من منفاه البعيد في سيلان
ليساعد في فتح مصر ؟ ان بين الزعيمين عواطف متبادلة ، فكلاهما رجل

دين وتقوى وصلاح ، وإن اختلفا قليلاً في الاتجاهات والأغراض . لم ينس المهدي عرابي ، ولم ينس عرابي المهدي بل ذكره كما ذكره محمد عبده من قبل ، بالخير وجميل الثناء .

ويكتب عرابي في الجزء الثالث المخطوط من مذكراته أنه « حضر لزيارتنا في سنة ١٨٨٤ اللورد روزبري واللورد ماكدونالد في محل إقامتنا السكنية بجهة « متوال » ، وبعد هنيئة أخذ يسألنا عن حملة هيكس في السودان ، وهل هي كافية لدرقوة محمد احمد المهدي أم لا ؟ وكانت المكالمة باللغة الفرنسية ، وكان محمود باشا فهمي يترجم لنا حديث اللورد روزبري . وهالك المحادثة التي دارت بيننا :

اللورد : ما رأيكم في دعوة مهدي السودان ؟ وهل هو المهدي المنتظر عند المسلمين ؟

عرابي : وماذا يعنيكم من أمره ؟
اللورد : إن أمره يهمنا كثيراً ، فإن لنا في الهند ستين مليوناً مرة ، المسلمين ، وكلهم يعتقد أن المهدي المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته .

عرابي : إن هذا الاعتقاد يعتقده كل مسلم .

اللورد : إذن ليس هو بمهدي ؟

عربي : كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدي .

اللورد : إن الحكومة المصرية أرسلت جيشاً من عشرين ألفاً لقتاله بقيادة رجل انجليزي اسمه هيكس ، فهل ترون أن هذا الجيش يكفي للتغلب على المهدي ؟

عربي : نحن نرى أن وجود قائد انجليزي على جيش مصري يكون من صالح المهدي ، فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقتلون إخوانهم المسلمين تحت قيادة مسيحية ، ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة ، وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قويا يخشى جانبه .

اللورد : أي علاج في نظركم لإطفاء شعلة ثورته .

عربي : إننا نرى أنه قائم بدعوة دينية ، وعلاجها أن يرسل إليه وفد من أجلاء العلماء يحاجونه بالدليل والبرهان ، ويقنعونه بالحسن فيما جاء بدعوته ، وإن كان طالب مُلك فيجعل أميراً على السودان تابعا للحكومة المصرية ، وعلى الحكومة المذكورة أن ترسل إليه العلماء من القضاة والأطباء والمهندسين والمعلمين ، وتفتح المدارس وتنشر العلم وتجري الإصلاحات اللازمة في الأقطار السودانية لتمدينها ، وفي مقابل ذلك يعطى المهدي جزية سنوية لمصر بنسبة إيراد السودان ومصرفه .

ثم انتهت الحادثة . وفي اليوم التالي توجهنا مع محمود فهمى باشا إلى دار الحكومة لرد الزيارة إلى اللوردين المشار إليهما ، فوجدنا اللورد روزبرى قد توجه إلى صيد الأفيال فى مسارحها ، وأما اللورد ماكدونالد فأثر البقاء . وقد أخبرنا بورود تلغراف إلى اللورد روزبرى ، بأن حملة هيكس هلكت عن آخرها ، واستحوذ المهدي على جميع أسلحة الحملة ومدافعها وذخيرتها . ثم قال اللورد « وهكذا كان الأمر كما رأيتم وكما أخبرتمونا بالأمس » .

من يدري كيف كان التاريخ يغير مسيره ويقلب صحائفه ، لو أن غوردون أسرفا فقدى به المهدي عرابي ، والتقى الزعيم العسكري بالزعيم الدينى فى رقعة واحدة ، واتفقا رأيا وخطه وعملا ؟ ولكن ذلك كله لم يثن المهدي عن تنفيذ أمانيه العظام ، فوجه للخدو توفيق خطابا يذكّره فيه « بدسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام ، وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، فقد أفضت إلى اندراس معالم الدين وعظمت أحكام الكتاب والسنة ، فصارت شرائع الإسلام غريبة بين الأنام . وتراكت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت المحارم ، واشتد الكرب على أهل الإيمان » . ثم نوّه بما طوّقه الله به من الخلافة الكبرى — المهديّة — وبأن من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله ، ألم يخرج الناس على حكم الكتاب والسنة؟ ومن يخرج عليهما « فأولئك هم الكافرون » ، وإذن فأنفسهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

ثم عَدَّ المهدي بعد ذلك انتصاراته وفتوحاته وقهره لجيوش الحكومة ومن كَذَّب به ، وما أصابهم جميعا من هزيمة نكراء واندحار شامل ، سيحقيق بمن يقتفون آثارهم حتى يكون ذلك عبرة لمن يعتبر .

« وهذا أوان المؤمن المصدق بوعد الله ، لا يرى لجميع مافي الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ، ولا يأسف على ما فاتته من ملكها الذي مآله للزوال وعظيم النكال . وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من ثواب في دار الكرامة والافضال ، فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر .

ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت أو عزل من كان قبلك ، وهو خارج من يدك ، وحيث كان الأمر كذلك فلا ينبغي لك إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد ، أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كانت الدنيا بحذافيرها . فدقق النظر ، واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك ، واسع فيما ينجيك عند ربك ، إذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك .

وما يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ألم تسمع قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم » . وقوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » ؛ وقوله تعالى : « يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ؛ وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » . وما هذه الطاعة لأعداء الله ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله » . إلى أن قال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

فإن كنت ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يُؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته ، فاعتبر ذلك ، وبادر إلى النجاة والسلامة المعتبرة ، وهي سلامة الإيمان ، ونزه نفسك عن أن تكون في أسر أعداء الله دائماً ، ولا تهلك من معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم » .

ويمضي المهدي في كتابه فيحذر الخديو من « الركون إلى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك » . ثم يحذره أخرى من الاغترار بقوته « ومظاهرة دول أهل الكفر لك ، فإنها لم تغن عنك من الله شيئاً ... »

وليكن في علمك أن أمرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسوله ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية ، وما قصدنا فيه إلا إحياء

: الدين وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين، ولا نريد مع ذلك ملكا، ولا جاها، ولا مالا» .

وكتب مثل هذا الكتاب الى الشام، ورد على المراكشيين المقيمين بمصر، بعد أن كتبوا له مصدقين به، وسألوه تنصيب أحدهم أميراً من قبله على مراكش لنشر دعوته في المغرب وشمال افريقيا . ولم تخرج تلك الكتب كلها عن توضيح رسالته، وإبانة مقاصده، وزهده في الملك والجاه والمال والسلطان. ا حتى أصبحت تلك المبادئ التي يكررها ويعيدها، أساساً لتعاليمه ونشر دعوته، فافتى أثرها بعد موته خليفته عبد الله التعايشي تحقيقاً لفكرة المهدي والمهدية، وتأييدا لمبادئ المهدي وتوكيدا لأغراضه . فكتب التعايشي الى أهل مصر والى الخديوى، والى الملكة إكتوريا، والى السلطان عبد الحميد، والى قبائل نجد والحجاز، والى أهل مكة والمدينة، والى ملك الحبشة، والى سلاطين غرب السودان في وادي وغرب افريقيا .

لم يكن للمهدي من غرض وقصد سوى أن يعيد للإسلام سابق ما كان له من مجد في صدره الأول، وأن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً، وأن يحارب كل من عاداه وكذب به، وعدهم قوماً كافرين خارجين على تعاليم الاسلام، فليس لهم أن يعاملوا بغير معاملة المارقين المكذبين في الحروب الدينية . وكانت له في سبيل تحقيق هذه الغاية تعاليم دينية، وأخرى اجتماعية، وثالثة اقتصادية .

أيقف المهدي في دعوته وقفة الجامد الذي يرث تعاليم الإسلام دون أن
يزيل عنها ما تراكم عليها من خرافات القرون وغفلة الجامدين ؟ إن باب
الاجتهاد مفتوح لم يغلق ، وأن تعاليم الإسلام في عهد الرسول والخلفاء
الراشدين ، خير مصدر يستقى منه المفكرون من مصلحي الإسلام كل جديد
يتمشى مع العقل وحاجات التقدم البشرى . والمهدي لن يتمسك بالقديم الذي
أصدأته القرون بأوهامها وخرافاتهما ، وإنه ليرد كل أمر إلى أصوله الأولى ،
ويؤسّر على الناس ما يجب التيسير فيه ، ويشدد عليهم ما يجب التشديد
فيه ، ويأخذهم بالعنف إن وجب العنف ، وبالرفق إن كانت في الرفق سلامة
ونجاة . ولن ينقصه في تحقيق هذه الغاية إلا الجرأة التي عُرف بها في الحق ،
والإقدام في سبيل نصر دين الله . فأعلن تعاليمه الدينية مجتهدا مجددا مصلحا
مستندا في ذلك على الكتاب والسنة ، وحكم العقل البرئ من الضلالات
والأوهام . فأبطل المذاهب الأربعة واستخرج منها مذهباً اجتهادياً جديداً ،
وحدّ فيه تلك المذاهب فسوّى ما بين بعضها البعض من خلافات ، وألغى
بعضاً منها ، وعاد بها سيرتها الأولى موحدة لا اختلاف فيها ولا تباين .

ويسرّ العبادات كالوضوء والغسل ، وشدد في العقوبات فقطع يد السارق
وجلد على العصية وشرب الخمر . وجدّد في المعاملات « فنهى عن زواج

البالغة بلا ولي ولا مهر ، وحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها ما تنفقه في حاجتها ، إلا إذا كانت غيبة الزوج في موطن الجهاد ، فيكتب له القاضي ويحدد له موعدا يحمل زوجته إليه في خلاله ، فإذا مضى الأجل حكم القاضي بطلاقها . وقضى على رجل قتل آخر رآه مع امرأته فطالبه بيمينه العكوف على حرام فعجز ، فأنفذ فيه عقوبة القذف أولا ، ثم عقوبة القتل ثانيا . وحكم برد طالقة الثلاث إلى مطلقها قبل أن تزوج بغيره ، إذا كان طلاقها قبل حلول دعوته . واضرب في المعاملات عن تحليف الشاهد مع قبول الطعن في عدالته » .

أكان المسلمون في عهدهم الأول متفاوتين مذاهبا متعددين شروحا وأحكاما ؟ إنهم لم يكونوا كذلك . وقد يضر الخلاف الناشب في شئون الدين ، عباداته وعقوباته ومعاملاته ، بعقول البسطاء ومعتقداتهم الذين لم يتفقهوا في أصوله ويقفوا على صحيح تعاليمه ، ومن أضر بهم الجهل ضررا بليغا .

إن قضاته ونوابه ، الذين عهد إليهم بمباشرة الأحكام والقضاء والفصل بين الناس ، قد اختارهم من صفوة العلماء الأجلاء الأتقياء ممن درسوا في الأزهر أو ممن عُرِفوا بالعلم والتقوى . فهو قادر بهم على وضع الأمور في نصابها ، والرجوع بالإسلام في أصوله وقوانينه وتعاليمه ، إلى ما كان عليه في

صدره الأول ، فلا خلاف إذن ولا مروق على الكتاب والسنة .
إن المهدي بهذه الفعلة الجريئة قد وضع أساس حركة إصلاحية كبرى
جالت بعقول كثير من مصلحي الإسلام قبل عهده وفي عهده وبعد عهده ،
وإن كثيرا من علماء الأزهر في مصر وشبابه وطلاب الإصلاح ، قد رحبوا
بتلك الفكرة وقدروها حق قدرها ، فدفعوا ببعضهم إلى الذهاب إليه
والانضمام تحت لوائه . ولكن المصلحين من أئمة المسلمين من سبقه ومن عاصره
ومن جاء بعده ، أعوزتهم الجرأة في سبيل الله والحق التي يستطيعون بها
الجهار بآرائهم والدفاع عنها والتضحية في سبيلها ، فكان بذلك مجددا ومجتهدا ،
ومصلحا وجريئا في الحق ونصرة الدين .

ويذكر المهدي في غصّارته الأولى ، أن الناس في السودان تباينوا
درجات وطبقات . فمنهم تاجر أشرفت له الأيام بالغنى وأثرى من تجارة سن
الفيل وريش النعام والرقيق . ونازعته نفسه الصبوات فأطلق لها العنان
ينهب منها غير مرتوٍ من فيضها الدّفاق ، فعاش يسيم سرح اللهو كل مسام .
فكان وكانوا ، يقدمون القهوة في أقداح (ظروف) الذهب ، ويزينون
خفاف نسائهم وسراريتهم المحظيات بأسلاك النضار ، وتصنع دجاج الذهب
وفراريجها تماثيل توضع تحفا في بيوتهم ، لتؤمى إلى الغنى الطائل والثراء
الوسيع .

وصاحب منصب كبير ، أثرى رشوة واختلاسا ، فاقتنى العقار ، واختزن المال ، وأسلس قياده للذادات ، ظمآن لا يُبَلَّ له أوام . فلا تعرض له صبوة إلا اندفع نحوها ، ولا بارقة لهو إلا اقتفى أثرها . ومعدم أزرت به الأيام ، نخل سلوى النفس في الامتاع والايناس ، والاستعانة باللهو على مضض الفاقة وتجبهم الأيام .

ومن دون هؤلاء وأولئك ، قوم ازدانوا خلقا وفضلا ودينا . أفيترك المهدي تلك البدع تسرى في كيان الأمة ، فتوهن بنيانها الاجتماعي ، وتقوض دعائم دعوته ؟ إنه ليأخذ الخليعين بالصرامة والبأس ، ويحرم عليهم حتى الامتاع البرئ ، فلا يسدرون في المجانة والغواية والذات .

فأبطل أول ما أبطل ، الألقاب والرتب الرسمية وغير الرسمية ، فتساوى الناس طبقات ودرجات . وقارب ما بين الغنى والفقير ، وفرض على الجميع اتباع لباس واحد ، هو جبة الزاهدين المرقعة ، ومنع النساء من التزين بحلى الذهب والفضة والتبرج ، وسمح لهن بغير ذلك في بيوتهن ، وحد من خالفت ذلك بالجلد . وأمر البدو بحلق شعر الرأس ولبس العمامة ، بعد أن كانوا يرخون شعورهم ويصقلونها بالدهن . وحرم الاحتفال بالأعراس والختان احتفالا يدعو إلى النفقة والإسراف . وجعل مهر زواج البكر عشرة ريالات وثوبين ، ومهر الثيب خمسة ريالات وثوبين ، وعاقب من خالف ذلك بمصادرة أمواله

وضمها إلى بيت المال ، فسهل بذلك نفقات الزواج على الفقراء ، ودعم النظام الاجتماعي بسياج قوى من العفة والحصانة . وأبطل الغناء والرقص ونقر الدفوف ، وجازى من خالف ذلك بجلده سبعة وعشرين سوطا ، تزيد إذا تمادى المخالف في فعله ، وحلق شعر من لا ترعوى عن غيرها في هذا السبيل . ومنع البكاء والنوح على الميت . وضرب من اشتغل بالدجل والتنجيم وكتابة الرقى والتمايم . وحرّم شرب الدخان ومضغ التبغ والحشيش والخمر . وجلد على ذلك ثمانين سوطا ، والحبس سبعة أيام . وجعل عقاب هجر القول وفحشه ، سبعة وعشرين سوطا ، فعرفت تلك العقوبات الزاجرة بعقوبة ، « حق الله » . وأعاد قصاص الرّجم للزناة وقطع يد السارق .

لم يترك المهدي هذه التعاليم الدينية والاجتماعية عرفا مألوفاً ، بل ضمها منشورا عاما ، أذاعه على أمراءه وأنصاره وأحبابه في جميع أنحاء السودان . فغدا ذلك المنشور دستور تعاليمه وسجل قوانينه ، يتبعها الأحباب والمهاجرون والأنصار والاخوان . وشدد النكير على الملاذ والانغماس في البذخ . فطلب من أحبابه ترك « الترفّهات لأن موت النفوس حياتها . فألبسوا الجلب المرقعات ، وألبسوا نساءكم البسيط الساتر . ولا تجاوروا من ترك الجهاد ، أو فعل منكرا من المنكرات المنهية كتابا وسنة . فخذوا نفسه وماله غنيمة للمسلمين المجاهدين .

ولا تمنعوا الأراضى لأنها لا تملك . بل هي محوزة لبيت مال المسلمين .
وليتعلم بعضكم من بعض ، وليتأدب بعضكم لبعض . وليكسر المجاهد
طرفه لأخيه المجاهد ، وأن لا يعلو عليه ، ويساويه في الفراش والأكل ،
وأن الأمراء والكافة كلهم على حد سواء ، إلا في الأمر والنهى ، فليحجبهم
ولا يتفاضلون عليهم في المَرْكَب والملبس والمأكل ، فمن فعل ذلك فهو
مردود منا .

اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق مَمَشَائى هذا إليك ،
لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعة ، بل خرجت اتقاء سخطك ،
وابتغاء مرضاتك . أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه
لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

إنها تعاليم المساواة بين أحبائه ، والتقريب بينهم ، ورفعهم إلى مستوى
لا يتعالون فيه درجات وطبقات ، إلا بالعمل الصالح والتقوى والاستبسال في
الجهاد ونشر دعوة المهدية ، التى بعد أن أوضحها ودعّمها بتقاليده وعرفه ،
فزجر النفوس وحملها على الزهد ، سندها بنظامه المالى القائم على جميع الزكاة
والعشور والغنائم فى بيت المال . فكان نظاما اسلاميا أو اشتراكيا دقيقا يسير
كما يقول غوردون فى مذكراته « تحت لواء الدين » ، منع فيه حوزة الأرض

« لأنها لا تملك بل هي محوزة لبيت مال المسلمين » ، وأبان أمرها في منشوراته إلى عماله ، تبيناً يرجع إلى الأحاديث الواردة بشأنها .

« وأما الغنائم وتقسيمها ، فإن كان المجاهدون منقطعين لله فقط ، ولا غرض لهم سوى الله ، ولا حرفة لهم سوى الجهاد ، وليسوا أهل بيع وشراء ولا حرت ، فليَصِرْ جمعها ووضعها في بيت المال ، والصرف منها شيئاً فشيئاً ، إذ إنهم لا وسيلة لهم سواه . وأما إذا كانوا من ذوى الحرف ويجتمعون للجهاد لوقت معلوم ، وعند انتهائه ينفرون لحرفهم ، فليَصِرْ أخذ الخمس منها ، وبقائها يقسم لهم على وفق كتاب الله وسنة رسوله » .

ويشرح لهم وسيلة التعاون في جمع الغنائم والزكوات لبيت المال ، « فيعزم على كل واحد من الإخوان ألا يُوخِرَ عن بيت المال درهما ولا ديناراً ، وتكون راحة جميع الإخوان والأصحاب كبيراً وصغيراً من بيت المال . وليفرح الإخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين . لا يخدم أحد لنفسه ولا لجماعته وعشيرته ، فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ، معاون لى على هذا الدين يكون على راحة المسلمين . ولتكن الراحة من بيت المال لجميع الأنصار ، وليبين من كان له عيال وأهل من كثير وقليل ، ومن ليس له إلا القليل فالكل يُقَنَّ له من بيت المال ما يكفيه » .

مضت الشهور درا كما تحددو بعضها بعضا في ركب الزمن بعد سقوط
الخرطوم ، وما أقرب نقلة الأيام من ربيع الآخر إلى رمضان ^(١) . فاذا ما أقبل
هذا الشهر اعتكف المهدي ، وساوره الحنين إلى ليالى الغار في جزيرة أبا ،
متهجدا متبتلا ، فلا يزال شوق الطيوف والأنوار والهواتف ينتابه رغم المشاغل
الكثيرة والمهام . فلما كانت آخر جمعة في شعبان دلف المهدي إلى الجامع
وئيدا متزملا ، ليس به من إشراقه القديم سوى ابتسامته التي لا تفارق
شفتيه ، وفي نفسه ما فيها من ألم ممض على ذوى قرابته الأشراف . ترى
اذلك آخر عهده بالجامع والصلاة والأحباب والإخوان ؟ أقرب أفول ذلك
النجم ، وخفوت ذلك الصوت ، بعد أن ملأ بصر الدنيا وسمعها تألقا وحديثا ؟
إنه الموت يدب إليه متلصصا بين أنصاره ليستأثر به دونهم ، ولو علموا غيب
الأيام ، لافتدته الملايين بالمهيج والأرواح .

خطب المهدي فحدث سامعيه حديثا طليبا بليغا ، فاما هم وهموا بالصلاة
أشار إليهم فجلسوا ، ثم نادى بصوت ينفر الغضب من نبراته : « أيها الناس !
إنى مللت من النصيح والمذاكرة لأقاربي الأشراف ، الذين تهادوا في الطيش
والغواية وظنوا أن المهديّة لهم وحدهم . ثم أمسك رداءه ونفضه ثلاث مرات

(١) سقطت الخرطوم في يوم الاثنين ٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ — ٢٦ يناير
سنة ١٨٨٥ م ، وتوفي المهدي في يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ —
٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ م

وقال : إني برئ منهم ، فكونوا أنتم شهوداً على بين يدي الله » وخيم
سكون عميق

أُكشفت للمهدى عن اقتراب يومه المحتوم ، فأراد بموقفه من عشيرته
أن يضع الأمور في نصابها ؟ وأن يطفى نار الفتنة بعده حتى لا ينفلت الزمام
وتجتاح الفوضى على البلاد ؟ إن أحباب المهدى ليدكرون منشوره الذي
أصدره في الأبيّض عقب سقوطها ، ومنشورات المهدى القانون النافذ
والدستور المتبع فأشار فيه « اعلاماً منه الى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه
بأن الخليفة عبد الله خليفة الصديق ، المقلد بقلائد الصديق والتصديق ، فهو
خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدي وهو مني وأنا منه » . انها النذير
والعرفان بالولاء لصفية الحميم ، الذي شاطره الجهاد وسائره منذ أول وهلة ،
وصدق به قبل أن يصدق به أى إنسان ، فلا ولى بعده ولا خليفة للمهدى
بعد موته سواه .

ومشت الحمى بعد أيام قلائل الى المهدى تسرى في جسده ، وتطاير النبأ
فجئن جنون الناس ، وتهامسوا والفرع يملاً قلوبهم عن ذلك المرض
المفاجئ ، فرعاً يغالب فيه المرء تشاؤم ما قد يُتوقع بظهور الغيب تصوراً ووهماً .
وارتقبوا يوم الجمعة فلعل الحمى تخف قليلاً ، ولعل المريض يصلى بهم ، ولعل
صوته وعظاته ونبراته تبدد عنهم الهواجس والأوهام . ولكن الخليفة عبد الله

هو الذى أقبل يوم الجمعة ليؤم المصلين ، وانه ليطلب منهم الضراعة الى الله
بشفاء المهدي الحبيب .

واشدت الحمى والمريض المسجى يغالبها ويدافعها عنه ، ولكن من ذا
يغالب « التيفوس » ؟ والأحباب المتزاحمون حول داره البسيطة لا يكادون
يدركون من هول الفرع حقيقة الحياة ، من شدة خوفهم ووجلهم عليه .
أيموت فى تقديرهم من لم يسلخ فى الوجود أكثر من اثنين وأربعين سنة ؟
انها لا شىء فى متوسط الأعمار والعرف المألوف ، ولكنه الأجل المحتوم .
فالأنوار التى تسطع بشدة وتوهج وبريق ، تخبو دائماً قبل الأوان .

ان الأحباب المتزاحمون حول داره يلفحهم قيظ الهاجرة ، ويضوئهم
ظماً الصيف فى رمضان ، ليعلمون أن الفاجعة فى أمامهم المنتظر كفواجع
الطبيعة المفاجئة ، تندفع بغتة عظيمة مهولة تدمر كل شىء فتجعله أثراً بعد
عين .

ويضحى يوم الاثنين ، فتعاود المريض المسجى يقظة وانتباه ، فيدير
عينيه فيمن حوله من خلفائه الثلاث وعشيرته الأدين ، ويصافحهم بتلك
الابتسامة ، ويلقى عليهم كلمات قليلة بصوت عجزت التيفوس من تغيير نبراته،
ويعين الخليفة عبد الله التعايشى على الأمر بعده ، « فهو منى وأنا منه » . ثم

تشهد ، ثم بسط يديه ، ثم مدّ رجله ، ثم أغمض عينيه ، ثم مضى مضى الأرواح في عالم الأرواح .

تلك سيرة المهدي إيجازاً واقتضاباً ، فأى أثر لتلك الحركة بل تلك الثورة التي عرفها جنوب النيل ؟

لم تكن حركة المهدي كما يتوهم البعض ، أو كما يريدون أن يتوهموها ، حركة استقلالية أراد بها المهدي استقلال السودان وفصله عن مصر ، بل كانت حركة دينية بحثة من أولها الى آخر . وكان المهدي صاحب دعوة إصلاحية ورسالة دينية ، ولم يكن رجل دنيا ، أو طالب ملك ، أو سلطنة ، أو جاه . وقد نوّه بهذا الرأي وأكّده غير مرة في كثير من رسائله ومواقفه .

١ — فهو المهدي ، « والمهدية أرادها الله لي » ويرد على رءوف باشا حاكم السودان العام « بأن دعائي الخلق الى تقويم السنة ، والإعلام بأنني المهدي المنتظر ، أمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم »

٢ — ١ — رده على غوردون حينما عينه سلطاناً على السودان الغربي ، فذكر له المهدي « ألا فاعلم أنني قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وقد كتبت الى الحكمدار في

الخرطوم وأنا في جزيرة أبا بدعايته الى الحق ، وبأن مهديتي
من الله ورسوله »

ب - « واعلم أني المهدي المنتظر خليفة رسول الله ، فلا حاجة لي
بالسلطنة ، ولا بملك كردفان ، ولا غيرها ، ولا في مال الدنيا
ولا زخرفها »

٣ — ١ - كتابه الى خديو مصر الذي أشار فيه الى « ما طوّقه الله به
من الخلافة الكبرى - المهديّة »

ب - ثم أفهم الخديو فيه « وليكن في علمك أن أمرنا هذا
ديني محض مبني على هدى من الله ونور من رسوله ، ومؤيد
من عند الله بجنود ظاهرية وباطنة ، وما قصدنا فيه إلا إحياء
الدين ، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين . ولا نريد مع ذلك
ملكاً ولا جاهاً ، ولا مالا »

٤ — كتبه الأخرى الى أهل الشام ومراكش وفاس والسنوسي ،
أكد فيها أن حركته دينية بحتة ، وأنه مهدي الله ، وأنه لا يريد
ملكاً ولا جاهاً ، ولا مالا .

٥ — توليته الأمر بعده الى خليفته عبد الله التعايشي ، أشد أتباعه
وأحبابه تشيعاً له ونصرة لمبادئه ، وأسرعهم بتصديقه ، وعدم

تخليفه أحداً من بنيه وعشيرته . بل إنه تبرأ منهم وأعرض عن فعلهم .

٦ — ارسال الخليفة بعده الرسائل الى الملوك والبلاد العربية وغيرها لدعوة المهدي وتحقيقاً لرسالته الدينية التي لا يريد من ورثها ملكاً ، أو جاهاً ، أو مالاً .

٧ — ان المهدي كان اماماً إسلامياً عظيماً ، وانه فتح باب تجديد واجتهاد وإصلاح ، كان ولا يزال مقفلاً على كثير من قادة المسلمين . فامتاز في هذا المضمار ، بالاجتهاد والجرأة في سبيل الله والحق .

٨ — وكانت لتلك الثورة نتائج أخرى اجتماعية ، بعيدة الأثر لا تزال تطبع البلاد بطابعها ، ولا تزال معالمها ظاهرة للعيان في أدب السلوك العام .

٩ — كانت حركته مقدمة للأحداث التي انتهت باتفاقية سنة ١٨٩٩ ، ومعاهدة سنة ١٩٣٦ . وما لا يدريه بعد ذلك غير الله . فضمير الغيب سر محجب مكتوم .

ان انصراف المهدي عن الدنيا وجاه الحياة وشهوة السلطان ، أبرز مظهر لحركته الاسلامية الدينية العظيمة ، التي استعد لها منذ نعومة صباه ، فخرج عن الطوق متعلماً متأملاً ، وشب زاهداً متبتلاً ، وعاش مجاهداً مجتهداً ،

وأعرض عما يُصبي النفوس ويلهيها عن مثلها العليا . فما حققه وما عاش من أجله ، ليظل نذير شؤم لكل من يحيد من ذويه أو من أحبابه ، عن المثل التي رسمها ، والدعوة التي نادى بها ، والمبادئ التي جاهد من أجلها . والويل للمارقين من هؤلاء عن تلك التعاليم ، من لعنة الأرواح الطاهرة .

وتتراكض الشهور والسنوات متسابقة ، وفوق قبر المهدي وفي المكان الذي قبض فيه ، تقوم قبة سامقة الى عنان السماء يزورها أحبابه تبركاً وترحمًا وولاء . وندنو جيوش استرجاع السودان شيئاً فشيئاً من أم درمان ، ويخرج خليفة المهدي للمعركة الفاصلة مع الجيش القادم في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، ويستبسل أحباب المهدي وأنصاره ، استبسالهم في أيام الجهاد الأولى . والتحمت يومذاك أسلحة غير متكافئة ، رجحت فيها كفة النظام والفن والعتاد الحديث ، على النجدة والشجاعة والإقدام . وانهمر الرصاص ، ودوت المدافع في « كركري » في ذلك الفضاء الذي لعب فيه المهدي طفلاً غريباً ، واقتحم أحبابه سياج النيران الطاحنة ، مستشهدين مرددين : الله أكبر ! الله أكبر ! وانطلقت قنبلة من البواخر النيلية الحربية أصابت قبة المهدي وتابعتها غيرها وغيرها ، فسجدت القبة الشاحخة وتقوضت أركان الأثر المشيد .

وأمر السير هيربرت كشنر (لورد) قائد حملة النيل بعد أسابيع من

احتلال عاصمة المهدي ، فهدمت بقايا القبة إلا حيطانها القائمة . وُنُش القبر ، فوجدت جثة المهدي ، سالمة المعالم ، كاملة الأعضاء ، لم تُشوَّها يد البلي ، كأنما حنَّطتها يد صناع ماهر من قدماء المصريين . ثم نقلت بعد أن فصل الرأس عن الجسد .

وقال قائل « إن الجثة دفنت مرة أخرى في ثرى السودان على كُتب من وادي خلفا » . وقال قائل آخر « إن الرأس احتفظ به في أحد المعاهد الطبية في إنجلترا » . وذكر غيرهما غير ما ذكرنا .

« رأس برأس ؟ إن رأس غوردون حمل إلى المهدي فوق سنان رمح . أفيحمل رأس المهدي إلى موطن غوردون ؟ » إنها مُثَلَّة آثار سخر برناردشو اللاذع في روايته « قيصر وكليوباتره » ، وغيره من الكتاب الانجليز الأحرار . ولم يُزِرْ بذلك القبر أنه خال من دفينه ، ففي حنايا تاريخ السودان له قبر غير منبوش .



شيت المراجع

- ١ — تاريخ السودان — لنعموم شقير .
- ٢ — السودان المصرى والانجليز — مجموعة رسائل لأحد أدباء مصر .
- ٣ — الجزء الثالث من مذكرات عمربى باشا (مخطوط) .
- ٤ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال : ١٨٨٢ — ١٨٩٢ —
لعبد الرحمن الرافعى بك .
- ٥ — الإشارات — لابن سينا .
- ٦ — المنقذ من الضلال — للغزالى .
- ٧ — محمد عبده — بلدكتور عثمان أمين .
- ٨ — دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدى .
- ٩ — راتب المهدي ، وبعض منشوراته .

- | | |
|-------------------------|--|
| 1 — Winston Churchill | : The River War. |
| 2 — Rudolf Slatin | : Fire and Sword in The Sudan. |
| 3 — Sir, R. Wingate | : Mahadism in The Sudan. |
| 4 — Richard Hermann | : The Mahadi of Allah. |
| 5 — J. Ohrwalder | : Ten Years of Captivity in The
Mahdi's Camp. |
| 6 — Sir auckland Colvin | : The Making of Modern Egypt. |
| 7 — Sir Alfred Milner | : Enqland in Egypt. |
| 8 — D.C. Boulger | : Life of General Gordon. |
| 9 — Ivttton Strachey | : The Eminent Victorians. |
| 10 — Lord Cromer | : Modern Egypt. |

20 NOV 1990

i 13234018

B 1192 3088

AUG - 1977

20 NOV 1990



DT
156.6
B25
1944